المسجد النبوي الشريف
في كتابات الرحالة المسلمين

د. أحمد محمد محمد شعبان

Shaban70@yahoo.com

المدينة المنورة

١٤٤١هـ

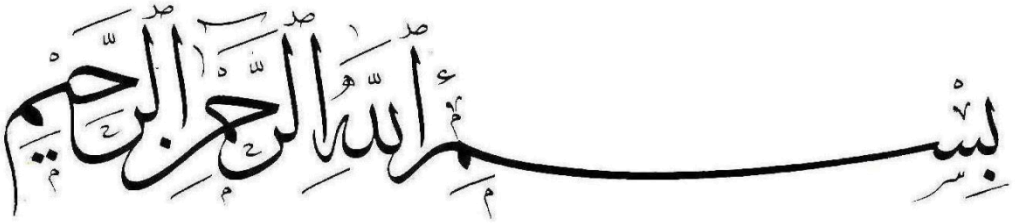
بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث حديث الرحالة المسلمين عن المسجد النبوي الشريف، ووصفهم له ولمعالمه ومرافقه وسدنته، والمشاهدات التي رأوها فيه، واللقاءات العلمية التي رصدوها، ضمن فترة زمنية تمتد من القرن الرابع الهجري وحتى وقتنا الحاضر.

وقد شملت الدراسة ما يقرب من (٨٤) رحلة، وهي كل ما وصل إليه الباحث من كتب الرحالة المسلمين منذ وصول أول رحلة إلينا في العصر العباسي وحتى الآن.

وقد حاول الباحث أن يقدم من خلال ما رصده من كلام الرحالة التطورات التي حدثت في المسجد النبوي الشريف من النواحي المعمارية، والخدمية، والعلمية وغيرها، بهدف رسم صورة متكاملة لما كان عليه المسجد النبوي وما صار إليه.

ومن أجل ذلك قسم البحث إلى عدد من المباحث حسب العصور التاريخية تبدأ بالعصر العباسي الأول وتنتهي بالعصر السعودي الحالي.

الكلمات المفتاحية:

المسجد النبوي – الرحالة – كتابات الرحالة – الرحالة المسلمون – معالم – الروضة.

مقدمة عامة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

خصّ الله تعالى المدينة المنورة بالكثير من الفضائل والمزايا، فهي مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاصمة الإسلام الأولى ، ومهوى قلوب المؤمنين .

ويمثل المسجد النبوي الشريف بالنسبة للمدينة نقطة ارتكاز، دارت فيه كثير من أحداثها، فكان مدرسة للعلماء، ومحكمة للخصماء، ومأوى للغرباء، ومسكناً للفقراء، ومحفلاً للمناسبات والمشاورات.

وقد حظي باهتمام العلماء والأدباء قديماً وحديثاً، فكتبوا عن فضائله، وتاريخه، ووظائفه، ومعالمه، والأحداث التي جرت فيه، والمراحل التي مر بها، وغير ذلك من الموضوعات التي تنبئ عن مكانته في قلوبهم.

وكان للرحالة المسلمين نصيب لا بأس به من هذه الكتابات، إلا أنها تتميز بكونها شاهد عيان رأى وسمع ووصف، وربما أضاف في حديثه ما قرأه من كتابات الآخرين قبله، فصنع مزيجاً متميزاً من المعرفة المشاهدة والعلم المقروء.

ونظراً لتفاوت الرّحالة في ثقافاتهم، واهتماماتهم، ووظائفهم، والمهمة التي جاؤوا لأجلها، والفترة الزمنية التي قضاها كل واحد منهم في المدينة؛ فقد جاء حديثهم عن المسجد النبوي متفاوتاً، فمنهم من يغرق في الحديث عن مشاعره الإيمانية، ومحبته الروحية، ومنهم من يسجل ملاحظاته أولاً بأول، مما يعطيهم ميزة الوصف الدقيق مع التحليل والاستنتاج، ومنهم من وثق رحلاته بالصور والوثائق، ومنهم من اهتم بالمسائل الشرعية، وآداب الزيارة، ومنهم من تميزت كتاباتهم بأسلوب أدبي رفيع يحمل عواطفهم الإيمانية والمتأججة، وتأملاتهم العميقة.

ولم أجد من قدم هذه الرحلات في دراسة شاملة مستقلة؛ ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي سنصحب فيها أفواجاً من الرحالة المسلمين الذين شدوا رحالهم إلى المسجد

النبوي الشريف عبر قرون متباعدة لنقف على شهاداتهم ومشاهداتهم، ونرصد التطورات التي جرت عليه خلال المراحل التاريخية المتباعدة.

وسوف تسهم هذه الدراسة في رسم صورة جديدة للمسجد النبوي، تضاف إلى الصور الأخرى التي سطرها العلماء في المصادر المتنوعة التي تحدثت عنه.

أهداف الدراسة:

وعليه فإن الهدف من الدراسة هو حصر كل ما يمكن الوصول إليه من كتب الرحلات في حدود البحث، واستقرائها، ورصد حديثها عن المسجد النبوي الشريف، بغية الوصول إلى الصورة الكاملة التي رسمها الرحالة للمسجد النبوي خلال العصور المتعاقبة.

تساؤلات الدراسة:

وسوف تجيب الدراسة عن العديد من الأسئلة من أهمها:

١. أين موقع المسجد النبوي من المدينة المنورة، وكيف يبدو من الخارج؟
٢. كيف شكل المسجد النبوي من الداخل؟
٣. ما هي أبرز معالم المسجد النبوي؟ وما هو وصفها؟
٤. ما هي المرافق الملحقة بالمسجد النبوي الشريف؟
٥. من هم القائمون على شؤون المسجد النبوي الشريف؟
٦. كيف تطورت الحركة العلمية في المسجد النبوي الشريف؟
٧. ما هي أبرز المشاهدات التي رصدها الرحالة المسلمون في المسجد النبوي الشريف؟

الدراسات السابقة:

لم أجد - فيما اطلعت عليه من مصادر – دراسة مستقلة استقرأت كتب الرحالة المسلمين، ورصدت حديثهم عن المسجد النبوي الشريف، ورغم اقتصار هذه الدراسة على الأعمال المكتبية؛ إلا أن صعوبتها تكمن في الوصول للمادة العلمية من جهة، وغزارة المعلومات الواردة فيها، وتحليلها، والخروج بصورة متكاملة عما ورد فيها عن المسجد النبوي الشريف من جهة أخرى.

منهج الدراسة وحدودها ومصادرها :

اعتمدت في البحث الطريقة العلمية، وهي التي تجمع بين الاستقراء والجمع والتحليل والاستنتاج. فقمت باستقراء كتب الرحلات في حدود نطاق البحث، وجمعت ما ورد فيها عن المسجد النبوي، وحللته إلى مباحث ومطالب، وخرجت بصورة متكاملة عما ورد في هذه الرحلات عن المسجد النبوي الشريف، وبكل الأبعاد التي تناولوها.

وأحب أن أؤكد ههنا على جملة من الأمور:

أولاً: اقتصار البحث على الرحالة المسلمين دون غيرهم من الرحالة المستشرقين الذين كانت رحلتهم كثير منهم مدفوعة من حكوماتهم لأغراض لا تخفى على أحد.

ثانياً: ارتأيت تنزيل هذه الرحلات بحسب تبعية المدينة المنورة عبر العصور التاريخية ابتداء من العصر العباسي الثاني في القرن الخامس الهجري وانتهاء بالقرن الحالي.

وسبب البداية بالقرن الخامس الهجري؛ فلأنني لم أعثر على أية رحلة مخطوطة أو منشورة قبل هذا التاريخ أرخت للمسجد النبوي الشريف، إلا ما ذكر من رحلة الإمام محمد بن إدريس الشافعي -رحمه الله- إلى المسجد النبوي، في القرن الثالث الهجري للقاء إمام أهل المدينة الإمام مالك -رحمه الله- فإنها خلت من أي شيء عن المسجد النبوي.

كما أنني لم أعثر فيما وقع بين يدي من المصادر والمراجع ومحركات البحث على أية رحلة مخطوطة أو منشورة في العهدين: السعودي الأول ١٢٢٠-١٢٢٦هـ، و عهد محمد علي باشا ١٢٢٦-١٢٥٦هـ إلا لرحالة مستشرقين ليس غرض هذا البحث التعرض لدراسة رحلاتهم، لذلك لم أخصص لهما مبحثاً مستقلاً، وأكتفي بالتنبيه على ذلك هنا، وفي موضعه بين العهدين: العثماني الأول والعثماني الثاني.

ولابد أن أنبه هنا أيضاً إلى أنني لم أعثر في العهد الهاشمي الذي كانت المدينة المنورة تابعة له، في الفترة ما بين: (١٣٣٧ – ١٣٤٤) هجرية، سوى على رحلة واحدة جاءت في نهاية سنة ١٣٤٤ هـ ، في الوقت الذي كان يتم فيه إجراءات الاستلام والتسليم بين العصرين الهاشمي والسعودي الحالي، وهي: "النفحات القدسية في الرحلة الحجازية"، للرحالة: محمد بن علي زغوان الطرابلسي المقري، وقد آثرت أن أدرجها ضمن رحلات العصر السعودي الحالي

لأنها أدركت العصرين من جهة، وليس فيها شيء مهم عن المسجد النبوي نستطيع من خلاله أن نشكل لها مبحثاً مستقلاً.

ثالثاً: نظراً لصعوبة الوصول إلى الرحلات المطبوعة لأصحابها؛ فقد اعتمدت في هذه الدراسة على ما جمعه مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة من الرحلات تحت عنوان: " المدينة المنورة في مئة وتسع وسبعين رحلة "، ومصادر هذه الرحلات إما كتب لمؤلفين ضمنوها عدداً من الرحلات، أو رحلات مطبوعة باسم أصحابها كرحلة ابن جبير وغيره، أو حديث عن الرحلات نشرت ضمن عدد من الدوريات والمجلات، على أنني اضطررت في نهاية المطاف إلى الرجوع إلى ما استطعت الحصول عليه من هذه المصادر لتوثيق الجزء والصفحة التي استقيت منها.

تقسيمات البحث:

اشتمل هذا البحث على : تمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة. على النحو الآتي:

تمهيد في: أصناف الرحالة، وتباين أساليبهم، و المحاور التي تناولوها عن المسجد النبوي.

المبحث الأول: المسجد النبوي في عيون رحالة العصر العباسي (١٣٢ ـ ٦٤٨ هـ)

ويشتمل على تمهيد وستة مطالب:

المطلب الأول: مواصفات المسجد الهندسية كما رآها رحالة العصر العباسي.

المطلب الثاني: مواصفات قبلة المسجد كما رآها رحالة العصر العباسي:

المطلب الثالث: الروضة ومعالمها ومحتوياتها كما رآها رحالة العصر العباسي:

المطلب الرابع المقصورة ومعالمها ومحتوياتها كما رآها رحالة العصر العباسي:

المطلب الخامس: المرافق الملحقة بالمسجد كما رآها رحالة العصر العباسي:

المطلب السادس: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر العباسي في المسجد النبوي الشريف.

المبحث الثاني: المسجد النبوي في عيون رحالة العهد المملوكي (٦٤٨ _ ٩٢٣هـ)

ويشتمل على تمهيد وأربعة مطالب:

المطلب الأول: المسجد النبوي كما رآه رحالة العصر المملوكي.

المطلب الثاني: الحركة العلمية في المسجد النبوي كما رآها رحالة العصر المملوكي

المطلب الثالث: المشاهدات التي رآها رحالة العصر المملوكي في المسجد النبوي

المطلب الرابع: مسائل اختلف فيها رحالة العصرين العباسي والمملوكي.

المبحث الثالث: المسجد النبوي في عيون رحّالة العصر العثماني الأوّل (٩٢٣ ـ١٢٢٠هـ)

ويشتمل على تمهيد وخمسة مطالب:

المطلب الأول: المسجد النبوي كما رآه رحالة العصر العثماني الأول.

المطلب الثاني: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر العثماني الأول في المسجد النبوي.

المطلب الثالث: العادات والتقاليد التي رصدها رحالة العصر العثماني الأول.

المطلب الرابع : الحركة العلمية في المسجد النبوي كما رآها رحالة العصر العثماني الأول:

المطلب الخامس: حديث رحالة العصر العثماني الأول عن سدنة المسجد النبوي الشريف.

المبحث الرابع: المسجد النبوي في عيون رحالة العصد العثماني الثاني (١٢٥٦-١٣٣٧هـ)

ويشتمل على تمهيد وستة مطالب:

المطلب الأول: المسجد النبوي الشريف كما رآها رحالة العصر العثماني الثاني

المطلب الثاني: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر العثماني الثاني في المسجد النبوي.

المطلب الثالث: حديث رحالة العصر العثماني الثاني عن سدنة المسجد النبوي الشريف.

المطلب الرابع : الحركة العلمية في المسجد النبوي الشريف كما رآها رحالة العصر العثماني الثاني.

المبحث الخامس: المسجد النبوي في عيون رحالة العصر السعودي الحالي

المطلب الأول: ما استدركه رحالة هذا العصر على من قبلهم في مبنى التوسعة العثمانية

المطلب الثاني: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر السعودي الحالي في المسجد النبوي.

المطلب الثالث: عمارة المسجد النبوي الشريف في العصر السعودي الحالي.

المطلب الرابع: الحركة العلمية في المسجد النبوي الشريف كما يراها رحالة العصر السعودي الحالي.

المطلب الخامس: موظفو المسجد النبوي وسدنته في العصر السعودي الحالي.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

تمهيد في:
أصناف الرحالة، وتباين أساليبهم، والمحاور التي تناولوها عن المسجد النبوي الشريف

لأدب الرحلات نكهة خاصة تختلف عن التأريخ والتأليف المباشر، فالرحالة شهود عيان يرصدون المعالم والأحداث في حينها، ويقدمونها من خلال معاينتهم لها، لا من خلال قراءاتهم عنها، وهذا من أبرز الفوارق بين كتابة التاريخ وكتابة الرحلة، إذ لا تحتاج عند قراءة الرحلات إلا أن تذعن لها وتبني عليها التحليل والاستنتاج، أو تذكر الفوائد والآثار، أما التاريخ الذي تنقله فإنك تحتاج إلى إثباته أولاً، وتصور شكله ثانياً، ثم تنتقل بعد ذلك إلى الخطوات الأخرى لتصل إلى ما تريد أن تصل إليه من استنتاج أو تعليق. تماماً كالفرق بين سماع الخبر من صاحبه فوراً، وبين سماعه عمن سمعه منه، وكلما ابتعدت سلسلة النقل؛ كلما احتجت إلى وضع مزيد من الضوابط، وبذل الكثير من الجهد للوصول إلى إثباته، ومن ثم الاستفادة منه، غير أنك واجد في كتب الرحلات من جمع بين المعلومة التاريخية والوصف المشاهد، أي بين ما كان عليه المعلم وبين ما هو فيه حين الرحلة، فلا ينبغي أن تتعامل مع المعلومتين في مرتبة واحدة، وهذا ما جرى عليه البحث في الاعتماد على ما عاينوه لا على ما نقلوه، إلا في حدود التوضيح والاستشهاد.

ومن هنا أقول: ليسوا سواء، فكما تختلف طبائع البشر في دقة الملاحظة الناتجة عن اختلاف اهتماماتهم الشخصية وتحصيلهم العلمي؛ كذلك اختلفت أصناف الرحالة، وتباينت تبعاً لذلك أساليبهم، ويمكننا بعد الوقوف على نتاج عملهم التمييز بين الأصناف الآتية:

أولاً: الرحالة المحترفون، الذين تميزوا بطول السفر والتنقل بين البلدان، فكان لهم باع في علم الجغرافيا، وطبائع البلدان، ولعل من أبرزهم في هذا المضمار، ذلك الرحالة المجهول صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار، ومحمد بن أحمد بن جبير صاحب التذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، وعبدالله بن محمد العياشي صاحب ماء الموائد، ومحمد بن محمد العبدري.

ثانياً: فئة الفقهاء والعلماء، الذين انصبت اهتماماتهم على القضايا الفقهية، والمسائل الشرعية، وتبادل الإجازات العلمية، وكان من بينهم كثيرون ممن تأثروا بالنزعة الصوفية، فسكبوا مواجدهم في قصائد أومقطوعات شعرية لا تخلو من مبالغات، كما رصد بعضهم الأفعال المشينة التي كان يقوم بها حجاج فارس والعراق من الطائفة الشيعية.

ثالثاً: أمراء القوافل، ومن معهم من الموظفين كالإعلاميين، والحسبة، وأمناء الخزائن، وغيرهم ممن أوفدتهم حكوماتهم بمهام خاصة. كرحلة محمد صادق باشا، وإبراهيم رفعت باشا.

رابعاً: فئة كبار الأدباء ممن تعد أعمالهم قطعاً فنية خالدة، من مثل علي الطنطاوي في مقالته: (من نفحات الحرم)، التي أبعد فيها الغور في تأملات عميقة، ومحمد حسين هيكل في مقالته: (في منزل الوحي) استنكر فيها التاريخ، واستحضر أحداث السيرة النبوية، وعائشة عبدالرحمن في (أرض المعجزات) التي استطاعت أن تحلق بالقراءة في أجواء روحانية فريدة، وعبد الماجد الدريابادي في (سفر نامه حجاز) الذي حشد فيه كثيراً من روائع الشعر الفارسي، واقترح فيه بعض الحلول الناجعة للنهوض بالأمة من خلال التأسي بالمثل الأعلى للإنسانية والقدوة الحسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وعلى الرغم من أن غالب الرحالة اعتمدوا في تناولهم للمعالم التي عاينوها والأحداث التي شهدوها على أسلوب السرد الإخباري بطريقة مباشرة؛ إلا أنك ستجد تفاوتاً كبيراً في هذا الأسلوب بين رحالة وآخر؛ وذلك يعود إلى تفاوت قدراتهم اللغوية، ومواهبهم الأدبية، فمنهم الضليع الذي تسعفه قريحته في شتى فنون القول شعراً ونثراً واقتباساً يحسن التمثل به في المواقف، كمحمد العبدري في " الرحلة المغربية"، وأبي سالم العياشي في "ماء الموائد"، ومحمد بن عبدالسلام التامكروتي في "الرحلة الناصرية الكبرى"، ومنهم المتمكن من فن الرحلات وطبائع البلدان على طريقة الجغرافيين كصاحب الاستبصار في عجائب الأمصار" المجهول الهوية وابن جبير في رحلته " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" وابن بطوطة في " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" وغيرهم، ومنهم من هو دون ذلك، إلى أن تجد بينهم من يقول الشعر المضطرب الوزن والمعنى، بل ستجد من يهبط بأسلوب هو أقرب إلى

العامية، ومن خط رحلته على طريقة اليوميات يسجلها وفق تسلسلها الزمني يوماً بيوم، من مثل محمد الكناني في "الأنفاس النورانية"، ومحمود ياسين في " رحلتي إلى المدينة"، وعبدالله الحمودي في " حكاية حج".

والموضوعات التي اهتم بها الرحالة من المسجد النبوي متنوعة، فقد رصدوا تفاصيل عمارته، والتغيرات التي طرأت عليها عبر الأزمنة، فتحدثوا عن شكله، ومآذنه، وأبوابه، وأعمدته، وسقفه، وجدرانه، ومادة بنائه، وزخارفه، والكتابات التي زينت به، كما تحدثوا عن الروضة ومعالمها، والحجرة وما فيها، وترجموا لأئمته، وخطبائه، ومؤذنيه، ومدرسيه، وسدنته القائمين على شرف خدمته، وآلية صيانته، وإنارته، ونظافته. كما احتفوا بالحديث عن العادات والتقاليد المتبعة في الصلوات الخمس، والجمع، والجنائز، وفي المناسبات، والأعياد، ، وعادات أهل المدينة المتعلقة به، كعادتهم في المواليد الجدد، ومن أتم حفظ القرآن الكريم من أبنائهم، إلى غير ذلك مما تجده مبثوثاً في المباحث الآتية.

المبحث الأول: المسجد النبوي في عيون رحالة العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ)

تمهيد:

وقفت في هذا العصر على ثلاث رحلات، صرح فيها اثنان من أصحابها بدخول المسجد النبوي الشريف، أما الأخير فلم يصرح بدخوله المدينة المنورة أصلاً، إلا أن وصفه الدقيق لمعالم المسجد النبوي الشريف يقطع أنه ممن شاهد وعاين.

أما الرحلة الأولى: فهي بعنوان: (سفر نامه)[١] للرحالة: ناصر خسرو بن حارث القاباذاني المروزي (٣٩٤ - ٤٨١ هـ)، وقد استغرقت سبع سنين، جاب فيها كثيراً من الأمصار،[٢] وزار خلالها المدينة المنورة، ومكث فيها يومين[٣].

وقد جاء وصفه للمسجد النبوي مختصراً في بضع كلمات، إلا أنه توسع قليلاً في وصف القبر الشريف، ونفى ادعاء الشيعة وجود قبر فاطمة رضي الله عنها داخل المقصورة، رغم أنه من كبار دعاة المذهب الإسماعيلي، والمؤلفين فيه.

أما الرحلة الثانية: فهي بعنوان: "الاستبصار في عجائب الأمصار"[٤] لرحالة مجهول، عثر على مخطوط الرحلة، ولم يرد فيها ذكر لصاحبها، لا في تضاعيف المخطوط، ولا في مقدمته[٥].

---

(١) ترجمها عن الفارسية الأستاذ يحيى خشاب، ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ط/٢ القاهرة ١٩٩٣ هـ.

(٢) بدأ رحلته من مسقط رأسه (مدينة قاباذان) في إقليم (بلخ) - طاجكستان حالياً – مروراً بالعديد من الدول العربية والإسلامية، وقد انتهت بحجته الثانية سنة ٤٣٩ هجرية. انظر: "رحلات الحج" أحمد محمد محمود؛ ط/١؛ المطبعة المحمودية ١٤٣٠هـ؛ ص١٦-١٩.

(٣) المصدر السابق ص٢١.

(٤) نشرتها دار النشر المغربية في الدار البيضاء ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، بتحقيق: الدكتور سعد زغلول عبدالحميد.

(٥) كل ما توصل إليه محقق المخطوط؛ أن صاحبها من مراكش، كان يعمل في ديوان أحد المسؤولين في عهد الملك المنصور يعقوب بن يوسف من ملوك الدولة المؤمنية ٥٥٤ ـ ٥٩٥ هـ

وقد صنف هذا الرحالة رحلته على طريقة كتب البلدان، وهي تنم عن دراية عالية بعلمي التاريخ والجغرافيا، ولهذا تعد مصدراً مهماً عن المسجد النبوي الشريف في القرن السادس الهجري قبل الحريق الأول.

أما الرحلة الثالثة: فهي" تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"[1] للرحالة المشهور محمد بن أحمد بن جبير أبي الحسن الكتاني الأندلسي، الذي زار المسجد النبوي الشريف في محرم سنة ٥٨٠ هـ، ومكث فيها خمسة أيام، وهو لا يقل شأناً عن صاحب الاستبصار في دقة الملاحظة وشمولية الوصف لعمارة المسجد النبوي الشريف.

وها أنذا سوف أسوق في المطالب الآتية ما تضمنته هذه الرحلات عن المسجد النبوي الشريف من وصف ومشاهدة.

(١) رحلة بن جبير : طبعت في ليدن ١٨٥٢م. مع مقدّمة للمستشرق رايت، وأعيدت طباعته سنة ١٩٠٧م؛ ط/ بدون؛ دار صادر؛ بيروت؛ د.ت.

المطلب الأول: مواصفات المسجد الهندسية كما رآها رحالة العصر العباسي.

أكد الرحالة في جميع القرون على أن المسجد النبوي الشريف مستطيل الشكل[١]، وأن مساحته دون مساحة المسجد الحرام؛ إلا ناصر خسرو القاباذاني فقد انفرد بالقول بأن مساحته تعادل مساحة المسجد الحرام[٢] .

وكان اعتمادهم في قياس طوله وعرضه ومساحته على وحدات قياسية متعارف عليها في عصرهم، من مثل: القامة والخطوة والشبر والذراع، كل حسب ما توفر له، إذ لم تتوفر المقاييس الدقيقة إلا في القرون المتأخرة.

وذهب صاحب الاستبصار إلى أن طول المسجد من ركن بلال[٣]رضي الله عنه، وهو الذي بإزاء قبر النبي صلى الله عليه وسلم، إلى ركن مؤخره مئتان وسبعون ذراعاً. وأن عرضه: من باب جبريل عليه السلام إلى باب الرحمة مئة وسبعون ذراعاً [٤]، بينما جاءت أبعاده عند ابن جبير بالخطوة، فذكر أن طوله مئة وست وتسعون خطوة، وعرضه مئة وست وعشرون خطوة[٥]. واتفقا على تقسيم أرض المسجد إلى سبع عشرة بلاطة؛[٦] خمس منها في مقدّم المسجد من القبلة، معترضة مستطيلة من غرب إلى شرق، على امتداد عرض المسجد، ومثلها في مؤخّر المسجد من الجهة الشمالية، وفي الجهة الشرقية ثلاث بلاطات معترضة، وفي الغربية أربع بلاطات[٧].

---

(١) ذكر الرحالة المستشرق ريتشارد بيرتون ١٨٢١-١٨٩٠م أن المسجد النبوي بناء متوازي الأضلاع، ولعله ذهب إلى ذلك لاتساع عرض الجهة الشمالية منه عن القبلية بعد التوسعات في العهدين المملوكي والعثماني. انظر: رحلة ريتشارد بيرتون إلى مصر والحجاز" ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ؛ ط/بدون؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م. ص٣٣.

(٢) الرحلات إلى المدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة- المدينة المنورة، ١٤٣٩هـ، ١٦/١.

(٣) لا أدري سبب تسميته هذا المكان بركن بلال، ولعله نسبة إلى المكان الذي صعد عليه عند الأذان. والله أعلم

(٤) الرحلات إلى المدينة المنورة ٤٧/١.

(٥) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٦٨-١٦٩.

(٦) البلاطة وحدة قياسية متعارف عليها في تلك الأزمنة، لكني لم أعثر على تعريف لها ولا مقدراها، ولعل المراد بها: الرواق.

(٧) انظر المصدر السابق نفسه.

وذكر صاحب الاستبصار أنّ ارتفاع جدران المسجد عن الأرض نحواً من ١٢ ذراعاً، وأضاف أن جميع جدرانه مرخّمة قدر قامتين أوأزيد قليلاً، وأنّ سماء المسجد (أي: سقفه) منقوشة مدهونة محفورة مذهّبة، تقوم على عتب (أي جسور) منقوشة[١].

وأما أعمدة المسجد، فذهب صاحب الاستبصار إلى أن جميع ما في المسجد من العمد ٢٧٦ عموداً[٢]، بينما ذهب ابن جبير إلى أنها ٢٩٠ عموداً، ستة منها داخل الحجرة النبوية[٣]، واتفقوا على أن كل عمود منها يتكون من مجموعة من الأحجار السوداء المنحوتة الململمة على هيئة الخرز، توضع أنثى في ذكر، الواحدة فوق الأخرى، ويصب بينهما الرصاص المذاب، وقد كسيت بغِلالة[٤] من الجيّار[٥]، وقد بولغ في صقلها حتى بدت كأنها رخام أبيض، وقد لُبِّست الأعمدة القصيرة التي تعلوها الأقواس في صحن المسجد بشراجيب الساج[٦].

وأعمدة المسجد كما ذكر ابن جبير متصلة بالسقف مباشرة دون قسيّ[٧] تنعطف عليها، نافياً وجود أيّ قوس يعترض بين السقف والأعمدة[٨]، واستثنى صاحب الاستبصار الأعمدة التي في صحن المسجد[٩] فذكر أنها تقوم على أقواس معقودة وجوهها ومنزلة بالفسيفساء، ومغلفة بشراجيب السّاج، وأكّد على أن الأعمدة التي إلى صحن المسجد أقصر

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ٤٧/١. ولم يذكر ابن جبير شيئاً عن سقفهِ ولا عن جدرانهِ.

(٢) السابق نفسه ص٤٩.

(٣) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٦٨-١٦٩. وذكر صاحب الاستبصار أنها خمسة.

(٤) الغلالة: الشيء الذي يلبس تحت الثياب، وتطلق على المسمار الذي يجمع طرفي الحلقة. لسان العرب ٥٠٢/١١. والمراد هنا: بطبقة من الجير.

(٥) الجيّار: خليط من الرماد والنَّورة والجصّ ، تاج العروس ٤٩٩/١٠.

(٦) الرحلات إلى المدينة المنورة ٤٦/١. والساج: شجر معروف ذو خشب ثمين؛ ويبدو أن المراد بشراجيبه: ألواحه المصقولة. والظاهر أنها من اللهجة المغاربية -والله أعلم-.

(٧) المراد بالقوس هنا: الجسر المعترض بين الأعمدة؛ ليحمل السقف من فوقه.

(٨) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٦٨-١٦٩.

(٩) وهو المساحة المكشوفة من المسجد.

من التي عليها سقف المسجد لوجود الأقواس، وذكر أنّ من مقدم المسجد إلى الصحن ١١ قوساً، وكذلك من الجهة المقابلة الشمالية[١].

وأبواب المسجد كما ذكر صاحب الاستبصار: عشرون باباً[٢]، "في الجانب الشرقي سبعة أبواب مربعة بمصاريع مشرجبة[٣]، وفي الجانب الغربي سبعة أبواب كذلك: منها باب صغير بدفّة واحدة، وهو قوس، وليس في المسجد باب بقوس غيره، وفي الجانب الشمالي أربعة أبواب كبار، وباب في القبلة، وباب صغير تحت المقصورة التي في قبلة المسجد عن يمين المحراب، في وسط البلاط، يهبط منه على درج يفضي إلى دار كان يسكن فيها آل عمر[٤] رضي الله عنهم"[٥].

وأضاف ابن جبير أن جميع ما في المسجد من الأبواب قد سدّ ولم يبق منها مفتوح سوى أربعة، في الغرب اثنان: يعرف أحدهما بباب الرحمة، والثاني بباب الخشية، وفي الشرق اثنان: يعرف أحدهما باب جبريل، والثاني بباب الرجاء[٦].

وكان للمسجد في ذلك العهد ثلاث مآذن[٧]، ذكر صاحب الاستبصار أن الأولى تقع على ركن القبلة الشرقي، والثانية على ركن القبلة الغربي، والثالثة في الجهة الشمالية،[٨] وخالف ابن

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ٤٦/١.

(٢) ذكر ابن جبير أنها تسعة عشر باباً، ولعله لم يعد الخوخة التي في قبلة المسجد تحت المقصورة من ضمن الأبواب، كما هو واضح من كلامه. انظر: رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٦٨-١٦٩.

(٣) مشرجبة: يغلب على الظن أن المراد بقوله مشرجبة أي محلّاة بقشور من خشب الساج. إذ لم نعثر على معنى الكلمة في المعاجم.

(٤) ذكر ابن جبير ص١٦٨: أن هذا الباب يفضي إلى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنه كان طريق عائشة رضي الله عنها إلى أبيها، والصحيح ما ذكره صاحب الاستبصار، لأن خوخة أبي بكر المشار إليها كانت غربي المسجد لا قبليه على ما رجح السمهودي وغيره.

(٥) الرحلات إلى المدينة المنورة ٤٧/١.

(٦) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ١٧١-١٧٢.

(٧) يعبر عنها بالمنائر حيناً، وبالصوامع حيناً آخر.

(٨) الرحلات إلى المدينة المنورة ٤٩/١.

جبير صاحب الاستبصار في ذلك، فذكر أنّ الثانية والثالثة تقعان في ركني الجهة الشمالية، قال: "وهما صغيرتان كأنهما على هيئة برجين والأولى كانت على هيئة الصوامع"[1].

وقد فرشت أرض المسجد كلها بالحصى الأحمر، وكذلك صحنه المكشوف، وكان فيه خمس عشرة نخلةً، وكان يعرف ببستان فاطمة رضي الله عنها[2].

(١) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٤.

(٢) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٣.

المطلب الثاني: مواصفات قبلة المسجد كما رآها رحالة العصر العباسي:

قسّم الرحالة الحديث عن المسجد إلى أربعة أقسام رئيسيّة هي: قبلة المسجد. والروضة الشريفة. والمقصورة النبوية. ومؤخر المسجد وملحقاته.

أمّا قبلة المسجد فهي إحدى البلاطات الخمس التي تكتنِفه طولاً من غرب إلى شرق[١]، وقد وضع الرخام على النصف الأسفل من جدار القبلة، على شكل إزار على إزار، مختلف الصفة واللون، والنصف الأعلى من الجدار مغطى كلّه بفصوص الفسيفساء المذهبة، قد أبدع فيه الصناع تصاوير أشجار مختلفات الصفات مائلات الأغصان بثمارها. وزين الجدار من باب الرحمة إلى باب السلام بآيات من أول سورة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ إلى آخر سورة: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[٢].

ويقع المحراب في حائط القبلة مائلاً إلى الشرق، وعلى جانبه كوكب كبير في وسطه حجر من ياقوت أزرق، يذكر صاحب الاستبصار بأنه وسط عقد فاطمة رضي الله عنها[٣]، كما أن في قبلة المسجد عن يمين المحراب الباب الصغير الذي ذكرنا أنه يفضي إلى ديار آل عمر، وعلى رأس المحراب حجر مربع أصفر قدر شبرٍ في شبر، ظاهر البريق والبصيص، يقال: إنه كان مرآة كسرى، وفي أعلاه داخل المحراب مسمار مثبت في جداره فيه شبه حقٍّ صغير لا يعرف من أيّ شيءٍ هو، يزعمون أنّه كان كأس كسرى، والله أعلم بحقيقة ذلك كله[٤]. وكل هذا من الخرافات التي كانت سائدة في كثير من مراحل التاريخ.

والمسجد كله على تلك الصفة لكن الصنعة في جدار القبلة أحفل، والجدار الناظر إلى الصحن من جهة الشمالية كذلك، أما الجدار الغربي والشرقي الناظران إلى الصحن فهما أبيضان مجرّدان ومقرنصان، قد زيّنا برسم يتضمّن أنواعاً من الأصبغة تظهر مدى العناية والاحتفال بهذا المسجد المبارك[٥].

---

(١) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٠.

(٢) الرحلات إلى المدينة المنورة ص٤٩/١. نقلاً عن الاستبصار.

(٣) السابق نفسه.

(٤) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٣.

(٥) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٤.

المطلب الثالث: الروضة الشريفة ومعالمها ومحتوياتها كما رآها رحالة العصر العباسي:

يذكر صاحب الاستبصار: أن طول الروضة بين بيته صلى الله عليه وسلم الذي دفن فيه وبين المنبر الشريف يبلغ ٥٦ ذراعاً، في وسطها موضع كان يجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم يستند إلى صندوق من خشب، ويرفع فيه حوائجه، وهذا الموضع شبه الحوض مرخّم عمقه قدر شبر وطوله ثلاثة أذرع، والتابوت فيه كما ذكر صاحب الاستبصار باقٍ إلى اليوم، عليه قفل من حديد، ما فتحه أحد، ولا يعلم ما في داخله، والصندوق في قبلة الحوض منزول فيه إلى الأرض بمقدار ما يتحرك[١].

وذكر ابن جبير أنّ الإمام كان يصلي في تلك الروضة إلى جانب الصندوق، لكنه ذكر صندوقاً آخر أمام الصفحة التي تصل ما بين الركن الغربي والركن القبلي من الحجرة النبوية، قال فيه: "وفي هذه الصفحة صندوق أبانوس، مختّم بالصندل، مصفّح بالفضة، مكوكب بها هو قبالة رأس النبي صلى الله عليه وسلم، طوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار وارتفاعه أربعة أشبار". قال: "وبإزاء المقصورة إلى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك"[٢].

أما المنبر الشريف فقد ذرعه ابن جبير بالشبر والخطوة والقامة فقال: "وارتفاع المنبر الكريم نحو القامة أو أزيد، وسعته خمسة أشبار، وطوله خمس خطوات، وأدراجه ثمانية، وله باب على هيئة الشباك مقفل يفتح يوم الجمعة، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر. والمنبر مغشى بعود الآبنوس، ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم، من أعلاه ظاهر قد طبق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه، فيدخل الناس أيديهم اليه ويتمسحون به تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم[٣]، وعلى رأس رجل المنبر اليمنى، حيث يضع الخطيب يده اذا خطب، حلقة فضة مجوفة تشبه حلقة الخياط التي يضعها في أصبعه صفة لا صغراً

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ص٤٧/١. نقلاً عن الاستبصار.

(٢) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٣.

(٣) كل ما مس جسد النبي **صلى الله عليه وسلم** الطاهر فإنه يتبرك به، فقد كان الصحابة يتبركون بثيابه وطعامه وغير ذلك مما مس جسده الطاهر، ولعل المكان الذي أشار إليه ابن جبير هو بقية المنبر النبوي الشريف بعد ما تهالك على طول السنين، وبقيت منه بقية كما ذكر المؤرخون.

لأنها أكبر منها، لاعبة تستدير في موضعها، يزعم الناس أنها لعبة الحسن والحسين[١]، رضي الله عنهما، في حال خطبة جدّهما، صلوات الله وسلامه عليه"[٢].

وفي قبلة المنبر مائلاً إلى الشرق قليلاً عمود من أعمدة المسجد، قد قطع فيه قدر شبر؛ ليدخل في جوف العمود بقايا الجذع الذي حنّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم[٣]، وهي قطعة ظاهرة، يقبّلها الناس، ويتبادرون للتبرّك بلمسها[٤]، وعلى حافّتها من القبلة الصندوق[٥]، وبين المنبر وحائط القبلة عشرون ذراعاً، وبينه وبين المقصورة ١٢ ذراعاً، وبين وجه المقصورة وحائط القبلة ٨ أذرع[٦].

ويفصل بين الروضة والحجرة الشريفة محمل عليه مصحف كبير، في غشاءٍ مقفل عليه، وهو أحد المصاحف الأربعة التي وجّه بها عثمان بن عفّان رضي الله عنه إلى الأمصار[٧].

---

(١) لا أدري لماذا توضع لعبة للحسين والحسين رضي الله عنهما في المنبر. ولعل هذا من الخرافات المتناقلة. والله أعلم.

(٢) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٢.

(٣) الرحلات إلى المدينة المنورة ص٤٩/١. نقلاً عن الاستبصار.

(٤) الصحيح أن الجذع الذي حن للنبي صلى الله عليه وسلم قد بلي ولم يبق منه شيء، كما ورد عند ابن ماجه في سننه ٤٥٤/١، ومن ثم فلا يشرع استلام ما لم يمس جسده الطاهر؛ لأن العلة المسوغة لذلك قد زالت.

(٥) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٢.

(٦) الرحلات إلى المدينة المنورة ص٤٨/١. نقلاً عن الاستبصار.

(٧) انظر: رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٣.

المطلب الرابع المقصورة الشريفة ومعالمها ومحتوياتها كما رآها رحالة العصر العباسي:

اتفق الرحّالة على أنّ المقصورة بناء مخمّس، وأنّه شكل عجيب، صفحاتها الأربع محرّفة عن القبلة تحريفاً بديعاً لا يتأتى لأحدٍ معه استقبال القبلة، لأنه لابد أن ينحرف عنها. وقد نقل ابن جبير عن العالم إسحق بن ابراهيم التونسي: أنّ عمر بن عبد العزيز اخترع ذلك في تدبير بنائها مخافة أن يتّخذها الناس مصلّى[١].

يبلغ محيط المقصورة من جميع جهاتها ٢٧٢ شبراً؛ طول الصفحة القبليّة منها ٢٤ شبراً، والشرقية ٣٠ شبراً، وما بين الركن الشرقي إلى الشمالي صفحة طولها ٣٥ شبراً؛ وفي الركن الغربي إلى القبلي صفحة طولها ٢٤ شبراً[٢].

وجدرانها مؤزّرة بالرخام البديع، ينتهي الإزار منها إلى نحو الثلث أوأقلّ يسيراً[٣]، ويعلو الجدار شبك من قضبان الحديد، متصل بالسمك الأعلى (السقف)، وقد أسدلت عليه أستار من الديباج الملون إلى قدر ثلثي الحيطان، والثلث الباقي من ناحية القبلة والغرب ملطّخ بالعنبر والعسجد والزعفران[٤]، وعلى طول الشبك من الأعلى غطاء مشبّك يمنع الطيور من تلويث القبر[٥].

وستائر المقصورة: لازورديّة اللون، مختّمة بخواتيم بيض، مثمّنة ومربّعة، وفي داخل الخواتيم دوائر مستديرة، ونقط بيض تحفّ بها، فمنظرها بديع الشكل، وفي أعلاها رسم مائل إلى البياض[٦].

واتفقوا على أنّ وجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى القبلة ناحية الركن من الجدار المطل على المنبر تحديداً ، وذكر صاحب الاستبصار أنّ وجه أبي بكر رضي الله عنه عند قدر وسطه عليه الصلاة والسلام، ووجه عمر رضي الله عنه هوأيضاً عند قدر وسط أبي بكر،

---

(١) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٠.

(٢) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥١، أما صاحب الاستبصار فقد مسحها بالذراع.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) الرحلات إلى المدينة المنورة ص٤٨/١. نقلاً عن الاستبصار.

(٥) رحلات الحج، ص:٢١. نقلاً عن رحلة ناصر خسرو.

(٦) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥١.

إلّا أن ابن جبير ذكر أن رأس أبي بكر إلى قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأس عمر مما يلي كتفي أبي بكر رضي الله عنهما، فيقف المسلم عليهم مستدبر القبلة مستقبل الوجه الشريف، فيسلم ثم ينصرف يميناً إلى وجه أبي بكر، ثم يميناً إلى وجه عمر.[١]

وأمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم ـ كما ذكر ابن جبير ـ مسمار فضة، يقف الناس عنده أمام الوجه الكريم للسلام عليه صلى الله عليه وسلم، بينما ذكر صاحب الاستبصار أن في الركن عند رأس النبي صلى الله عليه وسلم رخامة خضراء ما رؤي أجمل منها، جعلت علامة لموضع رأسه صلى الله عليه وسلم، وأن مسمار الفضّة قبال وجه أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعلامة لموضع رأسه[٢].

وذكرابن جبير أن أمام المواجهة الشريفة نحو٢٠ قنديلاً معلّقة من الفضّة فيها اثنان من ذهب، وذكر أيضاً أن موضعاً.عليه ستر مسبل في الصفحة التي تربط بين الركن الشمالي[٣] والركن الغربي يقال: إنه مهبط جبريل عليه السلام، .وذكر أيضاً أن أمام الصفحة التي تصل ما بين الركن الغربي والركن القبلي من الحجرة النبوية؛ صندوق من الأبانوس، مختّم بالصندل، مصفّح بالفضة، مكوكب بها، هو قبالة رأس النبي صلى الله عليه وسلم، طوله خمسة أشبار، وعرضه ثلاثة أشبار، وارتفاعه أربعة أشبار، وفي شمال المقصورة حوض صغير مرخّم؛ في قبلته شكل محراب، قيل: إنّه كان بيت فاطمة رضي الله عنها، ويقال: إنه قبرها[٤]، وذكر القاباذاني وغيره: أنّ الشيعة وحدهم من يقولون بأنّ ذلك قبرها[٥].

---

(١) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥١.

(٢) انظر: الرحلات إلى المدينة ٤٨/١، ٢٨.

(٣) دائما ما يعبر ابن جبير عن الشمال بالجوفي.

(٤) انظر: رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥١.

(٥) والتحقيق: أن قبرها في البقيع كما رجح ذلك السمهودي وغيره.

المطلب الخامس: المرافق الملحقة بالمسجد كما رآها رحالة العصر العباسي:

لم يتوسع الرحالة في هذا العصر عند الحديث على المرافق الملحقة بالمسجد ووصفها توسعهم في الحديث عن المسجد؛ فقد ذكر صاحب الاستبصار أن في الجهة الشمالية من الصحن بناء قائم كأنّه بيت (غرفة) هو مخزن المسجد[١]. ووصف ابن جبير ذلك البناء: "بأنّه قبّة كبيرة محدثة جديدة تعرف بقبّة الزيت، وهومخزن لجميع آلات المسجد المبارك، بإزاء الصحن في جهة الجوف". وذكر أيضاً: أنه يوجد صندوق كبير أمام الروضة المقدّسة (الحجرة) هوللشمع والأنوار التي توقد أمام الروضة كل ليلة[٢]. وكان في المسجد ٢٨٤ قنديلاً، وكان يحرق في كلّ ليلة ١٠ أرطال من الزيت.[٣]

وسدنة المسجد كانوا فتياناً من أحابيش وصقالب، ظراف الهيئات، نظاف الملابس والشارات، لهم في الجهة الشرقيّة بيت مصنوع من عود، يجلس فيه بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك، وفي الغرب من المسجد رحبة فيها بئرٌ، وبإزائها على الشفير حجر متسع، شبيه البيلة (الحوض) يتوضأ الناس فيه[٤].

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ص١/٤٩. نقلاً عن الاستبصار.

(٢) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٣.

(٣) الرحلات إلى المدينة المنورة ص١/٥٠. نقلاً عن الاستبصار.

(٤) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٦.

المطلب السادس: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر العباسي في المسجد النبوي.

ذكرنا طرفاً مما رصده رحالة هذا العصر من محتويت المسجد النبوي الشريف، في الروضة والمقصورة وغيرهما، كما سجل ابن جبير بعض ما شاهده من العادات والتقاليد المتبعة في خطبة الجمعة وما خالطها من البدع، و إليك ما ذكره باختصار:

خطيب مبتدع: ذكر أنّه شاهد في يوم الجمعة من أمور البدعة ما ينادى له: يا للّه يا للمسلمين ! وذلك أنّ الخطيب كان على مذهب الشيعة الاثني عشريّة[1]، فقام هذا الخطيب المذموم للخطبة، وقد تقدمته الرايتان السوداوان، وقد ركزتا بجانب المنبر الكريم، فقام بينهما، فلمّا فرغ من الخطبة الأولى، جلس جلسةً طويلة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل في السرعة؛ ليعطي الوقت والفرصة لخدمه في اختراق صفوف المصليين، حيث راحوا يتخطّون الرقاب، يسألون الناس كديةً لهذا الخطيب القليل التوفيق، فمنهم من كان يطرح الثوب النفيس، ومنهم من يخرج الشّقّة الغالية من الحرير فيعطيها، وقد أعدّها لذلك، ومنهم من يخالع عمامته فيطرحها، ومنهم من يتجرّد عن برده فيلقي به، ومنهم من لا يتّسع حاله فيسمح بالدينار والدينارين، أو بقراضةٍ من الذهب، ومن النساء من تطرح خلخالها وتخرج خاتمها فتلقيه؛ إلى ما يطول وصفه، والخطيب في أثناء هذه الحال كلها جالس على المنبر يلحظ هؤلاء المستجدين، وهم بين الناس، بلحاظ ملؤها الطمع والجشعُ والرغبة في الاستزادة، إلى أن كاد الوقت ينقضي والصلاة تفوت، وقد ضجَّ من له دينٌ وعلمٌ من الناس وأعلن بالصياح، لكن الخطيب ظلّ قاعداً ينتظر انتهاء أعوانه وخدّامهِ من جمع ذلك السحت؛ ليكوّم أمامه كوماً عظيماً، فلمّا أرضاه ما فعلوا؛ قام وأكمل الخطبة، وصلى بالناس، وانصرف أهل التحصيل، باكين على الدين، متحققين أشراط الآخرة، وللّه الأمر من قبل ومن بعد[2].

---

(١) أما الإمامة فكانت لأهل السنّة، وكان الإمام شيخاً عجمياً، من أهل الخير والورع كما ذكر ابن جبير.

(٢) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٦١.

وعظ رئيس العلماء؛ بحضورالخاتون بنت الأمير مسعود: قال : "ومن عجيب ما شاهدناه من الأمور الداخلة مدخل السمعة والشهرة؛ أنّ إحدى الخواتين، وهي بنت الأمير مسعود ملك الدروم والأرمن وما يلي بلاد الروم، زوجة نور الدين صاحب آمد؛ وصلت يوم الخميس في السادس من محرّم إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، راكبة في قبّتها، وحولها قِباب كرائمها وخدمها، والقرّاء أمامها، والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد؛ يطوفون حولها، ويدفعون الناس أمامها؛ إلى أن وصلت إلى باب بالمسجد المكرّم؛ فنزلت تحت ملحفةٍ مبسوطةٍ عليها، ومشت إلى أن سلّمت على النبي صلى الله عليه وسلم، والخول أمامها، والخدّام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها، إشادةً بذكرها؛ ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة، بين القبر الكريم والمنبر، فصلت فيها تحت الملحفة، والناس يتزاحمون عليها، والمقامع تدفعهم عنها؛ ثم صلت بالحوض بإزاء المنبر؛ ثم مشت إلى الصفحة الغربيّة من الروضة المكرّمة، فقعدت في الموضع الذي يقال: إنه مهبط جبريل عليه السلام، واستجلبت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقة، فما زالت في موضعها إلى الليل، إلى أن وصل الأمير، ومعه رئيس العلماء صدر الدين الأصبهاني: رئيس الشافعيّة في وقته، وقد أعدّ له كرسي بإزاء الروضة المقدّسة، فصعده، وحضر قرّاؤه أمامه، وابتدروا القراءة بنغمات عجيبة، وتلاحين مطربة، معلنين بالبكاء، ثمّ أخذ بخطبة من إنشائه، سحريّة البيان، يشير فيها إلى الروضة بقوله:

هاتيك روضته تفوح نسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أطار القلوبَ خشيةً ورقّة، وتهافتت عليه الأعاجم معلنين التوبة، فقد طاشت ألبابهم، وذهلت عقولهم، ثمّ أقبلوا يلقون بنواصيهم بين يديه، فيجزّها ناصيةً ناصية، ويكسوعمامته المجزوز الناصية، أوعمامة أحد قرّائه وجلسائِه"[1].

□

(١) رحلة ابن جبير؛ مرجع سابق؛ ص١٥٩.

المبحث الثاني

المسجد النبوي في عيون رحالة العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ)

تمهيد: لم يصلنا من هذا العصر سوى خمس رحلات، تباينت أساليبهم، كما تباينت أغراضهم التي تناولوها عن المسجد النبوي.

أما الرحلة الأولى: فهي بعنوان: "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة والوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة"[١]، لأبي عبدالله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي[٢] (٦٥٧ – ٧٢١ هـ)، دخل المدينة في ٢٢ ذي القعدة سنة ٦٨٤ هـ، وخرج منها ظهر ٢٦ من الشهر نفسه، ويغلب على حديثه الاهتمام بالجانب العلمي، فقد التقى في المسجد النبوي الشريف بالعديد من العلماء، وأخذ الإجازة عنهم، وترجم لكثير منهم.

أما الرحلة الثانية: فهي بعنوان: "الرحلة المغربية"[٣] لأبي عبدالله محمد بن محمد بن علي العبدري الحيحي[٤] (٦٤٣-٧٢٠هـ)، حج المؤلف سنة ٦٨٩هـ وزار المدينة؛ ومكث فيها يومين ثم غادرها مع القافلة إلى بلاده، اهتم بتاريخ عمارة المسجد النبوي، وأورد معلومات جيدة عن ترميم المسجد إثر الحريق الأول، يتميز أسلوبه بالبلاغة ويعتني فيه بالسجع.

أما الرحلة الثالثة: فهي بعنوان: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"[٥] للرحالة الشهير محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة[٦]

---

(١) تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، الناشر: دارالغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٥م.

(٢) السبتي: عالم موسوعي، ولد في سبتة بالمغرب، ثم رحل إلى فاس وغيرها من البلاد الإسلامية، له مؤلفات كثيرة منها: هذه الرحلة التي جاءت في سبعة أجزاء كبيرة، وتعد رحلته مرجعاً مهماً للحياة العلمية في البلاد التي زارها. انظر: "من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة " محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف؛ ط/١ ؛ دار الأندلس الخضراء؛ جدة١٤٢١هـ؛ ص: ١٢٣.

(٣) قدم للرحلة وعلق عليها: محمد الفاسي؛ ونشرتها: جامعة الملك محمد الخامس المغرب؛ الرباط ١٣٨٨هـ.

(٤) العبدري: عالم متبحر في كثير من العلوم، مولع بالجغرافيا ووصف المعالم؛ يتمتع بموهبة شعرية ونقدية عالية. انظر جلال الدين الحفناوي؛ "مجلة نادي المدينة الأدبي" (الآطام) العدد: (٣٩) ص: ١٠٠.

(٥) طبعت الرحلة بتحقيق: طلال حرب؛ الدار العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ.

(٦) ابن بطوطة: رحالة وشاعر وقاض، صاحب الرحلة الطويلة التي استمرت ٢٧ عاماً، زار فيها معظم حواضر العالم، ثم عاد إلى المغرب، وانقطع إلى السلطان أبي عنان المريني، الذي عين له كاتباً هو محمد جزي أملى عليه رحلته في مدينة فاس سنة ٧٥٨ هـ.

(٧٠٣ـ٧٧٩هـ)، دخل المدينة المنورة وأقام فيها أربعة أيام، كان يبيت خلالها في المسجد النبوي الشريف، مما مكنه من وصفه وصفاً تفصيلياً إلى زيادة المهدي سنة ٧٢٥هـ.

أما الرحلة الرابعة: فهي بعنوان: "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"[١] للرحالة خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم القنتوري البلوي[٢]؛ (٧١٣ـ٧٦٧هـ) وهوعالم وأديب ورحالة، دخل المدينة المنورة في ١٩ ذي القعدة سنة ٧٣٧هـ؛ وأقام فيها خمسة أيام، زار خلالها المسجد النبوي الشريف، والتقى فيه بعدد من العلماء والأدباء والمجاورين، ثم تابع سيره إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وفي طريق عودته مر بالمدينة المنورة؛ وأمضى فيها يوماً واحداً، ثم واصل رحلته إلى بلاده.

يمتاز بأسلوب رفيع، وشاعرية صوفية ، أعاد كلام ابن جبير في وصفه للحجرة النبوية، ولم ينسبه إليه، وأضاف إليه بعض التعديلات.

وأما الرحلة الخامسة: فليس لديها عنوان مستقل، وإنما نسبت إلى صاحبها: "رحلة القلصادي الأندلسي"[٣] نسبة لأبي الحسن علي بن محمد القرشي الأندلسي الشهير بالقلصادي، ابتدأ القلصادي رحلته العلمية من غرناطة سنة ٨٤٠ هـ إلى شمال أفريقيا والحجاز، ووصل مكة سنة ٨٥١هـ، فحج وزار المدينة في طريق عودته، ومكث فيها يوماً ونصف، إلا أنه اكتفى بتعداد مواقع الزيارة، ولم يذكر شيئاً عن المسجد النبوي الشريف، سوى التعبير عن مشاعره الجياشة.

هذه هي الرحلات التي وصلتنا من هذا العهد عن الرحالة المسلمين، ولابد من أن أشير هنا إلى أن عدد من الرحلات في هذه العهد قام بها رحالة مستشرقون، لأهداف استعمارية أو

---

(١) حقق الرحلة: الحسن السائح؛ ونشرها: صندوق إحياء التراث الإسلامي، المشتركان: المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ١٣٩٠هج – ١٩٧٠م.

(٢) نسبة إلى قبيلة بلي العربية.

(٣) حقق الرحلة: محمد أبو الأجفان ؛ ونشرتها: الشركة التونسية للتوزيع؛ تونس ١٩٧٨م، وانظر ما كتب عبدالله الحيدري عن القلصادي في "مجلة نادي المدينة الأدبي" (الآطام)؛ العدد: ٣٩ ؛ ص:٧٠.

سياسية، كرحلة البرتغالي نود فيكودي فارتيما[1] (٨٦٩ ـ٩٢٣هـ) الذي أرسله ملك البرتغال لاستكشاف المناطق التي كان البرتغاليّون يخططون لاستعمارها، فتنكّر بهيئة مملوك مسلم وتسمّى باسم: "الحاج يونس المصري" وتعلّم شيئاً من العربيّة والعلوم الشرعيّة، ودخل مكّة والمدينة مع ركب الحجيج سنة ٩٠٨هـ؛ ومكث فيها أربعة أيّام، وقد جاء وصفه للمسجد النبوي الشريف مغايراً لما جاء عند الرحالة المسلمين؛ ذلك لأن كتاباته مملوءة بالتعصّب الديني والكراهية والجهل؛ وممزوجة مع الأساطير والحكايات الشعبيّة المسيحيّة عن قبر النبي صلى الله عليه وسلّم وصاحبيه.

كما أنني أحب أن أنوه إلى أن من يتتبع الرحلات وفق المراحل الزمنية المتوالية؛ يجد أن المتأخر يجعل من المتقدم مادة ثرية لرحلته، ينقل نصوصها كما جاءت، بصوابها وخطئها، بطولها وقصرها، وقليل من يحاول أن يميز أو يمحص، أو يصحح أو يخطئ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم في باقي العلوم.

وعليه فإن من يطّلع على ما كتبه ابن بطوطة والبلوي في العهد المملوكي، وبعض من جاء بعدهم سيلاحظ أنهم يعيدون نص كلام ابن جبير في وصف المسجد النبوي.

فقد أعاد ابن بطوطة كلام ابن جبير في وصف الحجرة الشريفة، وفي تحديد خوخة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي غير ذلك من المعالم، وكذلك فعل البلوي وأكثر، فقد أعاد نص ابن جبير في وصف الحجرة الشريفة، وفي طول المسجد وعرضه، وفي وصفه لجدار القبلة وفي غير ذلك مما يطول استقصاؤه.

ومن عجيب ما وقع لهم من الخطأ بسبب البعد عن الدقة والتمحيص في النقل؛ أنهم نقلوا عن ابن جبير أنّ في قبلة مسجد قباء دار أبي أيّوب الأنصاري، وهي دار بني النّجار، ويليها دار عائشة، وبإزائها دار عمر، ودار فاطمة، ودار أبي بكر رضي الله عنهم. والمتأمل في كلام ابن جبير يجد أنه لم يرد بقوله: "وفي قبلة المسجد"[2] مسجد قباء، وإنما أراد مسجد رسول

---

(١) "رحلات فارتيما" تأليف: جون وينتر؛ ترجمة: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ القاهرة ١٩٩٤م؛ ص٤ـ١٠.

(٢) رحلة ابن جبير، ١٥٦.

الله صلى الله عليه وسلّم، ولكن عبارته هذه جاءت عقيب حديثه عن قباء، فهو أراد العطف على المتقدم ذكره، و هو المسجد النبوي، لا على المتأخر ذكره، وهو مسجد قباء، لكن السرعة، وعدم الدقة من هؤلاء الرحالة؛ نقلت هذه البيوت من محيط المسجد النبوي إلى محيط مسجد قباء، ثم جاء بعدهم من يعلق على هذه المعلومة بأنها من الموروثات الشعبية الشائعة في تلك الأزمان[1]، ولم يدر أنه لو بذل أدنى تأمل لعلم أنه خطأ في النقل أدى إلى خطأ آخر في التحليل، وربما يأتي من يحاول أن يثبت وجود هذه البيوت في هذه المنطقة. وبمثل هذا تنشأ الأخطاء المركبة، وما أكثرها لدى من أعطي حظاً من النظر.

وعليه فإنني لن أكرر الكلام الذي نقلوه عمن سبقهم من الرحالة؛ كون الحديث عنه قد تقدم في المباحث السابقة؛ وإنما سأسجل الملاحظات التي شاهدوها في عصرهم، والاستدراكات التي أضافوها على من سبقهم.

وها أنذا سوف أسوق في المطالب الآتية ما تضمنته هذه الرحلات عن المسجد النبوي الشريف من وصف ومشاهدة.

---

(١) انظر: الرحلات إلى المدينة المنورة ١٤٩/١.

المطلب الأول: المسجد النبوي كما رآه رحالة العصر المملوكي.

إن المتأمل فيما كتبه رحالة هذا العصر عن المسجد النبوي الشريف يلاحظ أن ملامحه قد اعتراها بعض التغيير نتيجة العمارة التي قام بها السلطان قلاوون الصالحي للمسجد النبوي عام ٦٧٨هـ، وتوسعة الأشرف قايتباي له بعد الحريق الثاني عام ٨٨٦هـ، ولكنه بقي محافظاً على طابعه العام، وعلى المعالم التي حرص كل من تصدى لعمارة المسجد النبوي عبر التاريخ على المحافظة عليها.

ويقدم ابن بطوطة وصفاً عاماً للمسجد فيقول: "المسجد النبوي مستطيل، تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل، ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت. والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية، مما يلي الشرق من المسجد الكريم، وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله. وهي منورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت..." [(١)] ثم تابع حديثه في وصف معالم المسجد كما جاءت عند من سبقه من الرحالة والمؤرخين، ونقل كلام ابن جبير بطوله.

وأما الرحالة العبدري فقد ذكر: "أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم على صورة المسجد الحرام، إلا أنه في المساحة دونه بكثير، وعرضه من المشرق إلى المغرب، وهو عالي السمك، مبيض، مدور بالسقائف، عجيب المنظر، ووسطه فضاء مفروش برمل أحمر، وأساطينه مبيضة بالفضة، عالية، متسع ما بينها، وأوسع سقائفه ناحية الجنوب، وفيها المحراب، وهي خمسة صفوف، وفي مؤخر المسجد، وهي ناحية الشمال أربعة صفوف، وفي ناحية الشرق ثلاثة صفوف، وفي الغرب أربعة صفوف، وفي الناحية الشمالية من فضاء المسجد بيت مربع، مليح، هو مخزن المسجد، وبالقرب منه نخلات صغار ناضرة، عليها أثر التعاهد بالصون"[(٢)]. ثم راح ينقل ما تبقى من وصف المسجد وفق ما جاء عن ابن جبير وغيره من الرحالة المتقدمين.

---

(١) رحلة ابن بطوطة ٣٤٩/١.

(٢) انظر: الرحلات إلى المدينة المنورة ٩٢/١، نقلاً عن رحلة العبدري.

ويجدر بنا هنا أن نسجل أن أياً من الرحالة في هذا العصر لم يحاول أن يرسم لنا صورة عامة عما كان عليه المسجد النبوي قبل التوسعات التي أشرت إليها في هذا العصر وما آلت إليه بعدها، بل لم يوضح واحد منهم أسباب هذه التوسعات ومجرياتها على النحو الذي فعله بعض المؤرخين، لكن ينبغي أن نسجل أيضاً أن الرحالة العبدري كان أكثر دقة وتفصيلاً، واستيعاباً لتاريخ المسجد النبوي والتطورات التي حدثت فيه من غيره من رحالة عصره، وأكثر بعداً عن النقل الحرفي عمن سبقه من الرحالة. وأن الرحالة السبتي كان أكثر تحديداً لمعالم الحرم، وربطها بالروايات التاريخية.

وليس من مقصود البحث أن أسرد كلامهم بطوله، لكن أحب أن أشير إلى بعض المعالم التي تغيرت ملامحها، أو أُحدثت في المسجد بعد العمارتين التي أشرت إليهما من خلال ما سطره رحالة هذا العصر.

فقد استدرك السبتي على ما ذكره ابن جبير من أن أرض المسجد كلها مفروشة بالحصى الأحمر، وكذلك صحنه المكشوف. فقال: "المسجد كله مفترش برمل أحمر، ليس فيه شيء مفترش بالرخام إلا ذلك الموضع (يريد محراب النبي صلى الله عليه وسلم) وحريم الروضة[1] الكريمة ومركز المنبر الشريف"[2].

وتحدث العبدري عن أبواب المسجد والتطورات التي جرت عليها، فقال: "وللمسجد الآن أربعة أبواب: باب السلام وباب الرحمة من ناحية الغرب، وباب جبريل وباب النساء من ناحية الشرق". ثم فقال: "وذكروا أنه كان للمسجد عشرون باباً ثم سدت كلها إلا هذه الأربعة المذكورة"[3]. وهي ذات الأبواب الأربعة التي كانت مفتوحة في العصر العباسي، إلّا أنّ بعضها اختلفت تسميته عما كانت عليه.

---

(١) حريم الروضة: ما أحاط بها؛ "يقال: حريم الدار: ما أضيف إليها وكان من حقوقها ومرافقها"؛ انظر: "تهذيب اللغة" باب: الحاء والراء والميم.٣٢/٥.

(٢) ملء العيبة، ص ٣٥.

(٣) انظر: الرحلات إلى المدينة المنورة ٩٢/١، نقلاً عن رحلة العبدري.

وتحدث عن التطورات التي جرت على المقصورة الشريفة فقال بعد أن حدد مكانها من المسجد: "وهي شرفها الله معمولة بالرخام الأبيض من الأساس إلى سقف المسجد، بأتقن ما يكون من الصنعة وأعجبه، وهي موضوعة على شكل التربيع، ولكن ربعها الشمالي ينحو نحو الاستدارة، وفيه أركان وبعض انخراط إلى الجهة الشرقية، وفي ركنها الواصل بين الجدار الغربي والجنوبي صندوق مليح من خشب، مبني في الحائط بإزاء رأس النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى يمينك وأنت مستقبل له علم بإزاء رأس أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم آخر بإزاء رأس عمر رضي الله عنه، ويعطي ذلك أنها على هذه الصورة"[١]. ويلاحظ أنه لم يفصل في وصفها على نحو ما جاء عند رحالة العصر السابق.

واهتم البلوي بالكتابات التي على المقصورة الشريفة، فقال: "وللشبابيك أبواب مكتوب على كلٍّ باب منها ما نصّه: بسم الله الرحمن الرحيم خدم بهذه الدار كزينة للحرم الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين [٢] في سنة ثمان وستين وست مئة"[٣].

ومما أضافه البلوي أيضاً: "فمن أبدع ما رأيت وأبرعه قصيدة فريدة، كتبت بالخطّ المذهّب الرائق البديع، وأثبتت في ألوان الأدهان التي تخجل زهر الربيع، رفعت أمام المقصورة المقدّسة، في سقف المسجد الشريف الرفيع، فنحلت القراطيس لؤلؤها، ونقلت كلّ ما كان قبلها وبعدها، وتشهد لناظمها بالقريحة الراجحة، والقصيدة الصالحة"[٤]. ثم ذكر القصيدة بطولها، وهي مؤلفة من اثنين وعشرين بيتاً، ومطلعها:

سلام كنشر الورد من سقط الندى عليك رسول الله يا منزل الهدى

وفي أسفل القصيدة عبارة تشير إلى تاريخ عمارة السلطان الناصر، وأنها بدأت في شهر ربيع الأوّل، وانتهت في مستهل شهر جمادى الثاني، سنة إحدى وسبع مئة للهجرة النبويّة.

---

(١) المرجع السابق ٩٣/١.

(٢) قوله: "قسيم أمير المؤمنين" يريد به: الخليفة العبّاسي الذي جاءت به المماليك ليشدوا به أزر ملكهم، وليوحوا للناس باستمرار الخلافة العبّاسية ولو صوريّاً.

(٣) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، ص٤٦.

(٤) السابق، ص٦٣.

وتحدث العبدري عن القبة التي بناها السلطان قلاوون فوق الحجرة الشريفة، فقال: "وفوقها قبّة بيضاء إلى الدكنة، مصمتة أيضاً، مليحة، عجيبة، عالية على البنيان، بادية للعيان، يثير مرآها من ذي الوجد كامن الأشجان"[١].

وأشار العبدري أيضاً إلى احتراق المنبر النبوي الشريف في الحريق الذي وقع للمسجد، وقال: "ولما وقع الحريق بالمسجد احترق المنبر حتى لم يبق منه إلا قطعة عود، فصنع منبر آخر ساج، وهو الذي في المسجد الآن، وجعلت تلك القطعة في داخله بإزاء ثقب يدخل منه الناس أيديهم فيمسحونها تبركا بها"[٢]. ويبدو أن هذا المنبر الساج الذي أدركه العبدري قد استبدل بعد حين بمنبر آخر قال فيه البلوي: "وعن يمين الروضة المقدسة المنبر المبارك، الذي قصر الصانعون عن صنعته، ونبت الأفهام عن مرام شبهه، فقام في أدق نمنمة، وأوضح رقم، من رفيع الأبنوس، ونفيس الصندل الأحمر والأصفر والبقس واللبع والبقم والشوحب والقيقب[٣]، بأحكم تصنيف وأبدع تركيب"[٤].

وكان الرحالة السبتي قد نص على أنّ أصحاب التوسعات المتعاقبة كانوا قد حافظوا على موضع المنبر النبوي في مكانه دون تغيير، وقال: "والمنبر اليوم في وسط المسجد، وإذا كثر الناس في الموسم تقدم الإمام إلى القبلة فصلى في المحراب في الزيادة المزيدة في القبلة"[٥]. وذكر أنّ جدار القبلة كان هناك قبل الزيادة فيه، مستدلاً بما رواه يزيد بن عبيد عن سلمة قال: "كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة تجوزها."[٦] ثم عقّب على هذه الرواية بقوله: "قلت: وكذلك كان مقدار قربه من الجدار الغربي، أخبرني بذلك بعض شيوخ الحرم الشريف، أمّا الآن فليس كذلك لكون الزيادة وقعت في الجهات الأربع"[٧].

---

(١) انظر: الرحلات إلى المدينة المنورة ٩٦/١، نقلاً عن رحلة العبدري.

(٢) رحلات الحج؛ ص ٥٠.

(٣) المراد بالبقس واللبع والبقم والشوحب والقيقب: أشجار ذات خشب نفيس تنتشر في جبال السراة والحجاز.

(٤) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مرجع سابق، ص٦٤.

(٥) ملء العيبة ص٣٥.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: قدر كم ينبغي أن يكون بين المصلي والسترة، ١٠٦/١ برقم٤٩٧.

(٧) ملء العيبة، ص٣٥.

كما تحدث عن المحراب النبوي فقال: "وموضع مصلى الإمام اليوم محدود ـــ يريد: أنه معلوم ـ يقولون: هو موضع مصلّى النبي صلى الله عليه وسلم، وظاهر الحال أنّ موضع سجوده صلى الله عليه وسلم هو موضع الخزانة التي فيها المصحف، وموضع قعوده صلى الله عليه وسلم في جلسات صلاته هو موضع سجود الإمام اليوم في وسط المسجد بين القبر والمنبر"[1]. ويبدو من كلامه أنّ الذين قاموا بالتوسعات حافظوا على موضع مصلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ وميّزوه بهيئةٍ مخصوصة؛ قال في وصفها: "هو مسطّحٌ برخام مجزّع منخفض يسيراً عن وسط المسجد كأنّه صهريج ـ أي: حوض ـ صغير يسع مصلّيين متضامّين"[2].

وأضاف العبدري وابن بطوطة على من قبلهم من الرحّالة ما حدث في زمانهما من بناء دار للوضوء عند باب السلام، فقال: "وأمر الملك المنصور في هذه الأعوام ببناء دار الوضوء عند باب السلام من ناحية الغرب، وتولى بناءها الشيخ الصالح الأمير المسدد علاء الدين الأعمى، وصل الله توفيقه، فأقام هنالك داراً متسعة متقنة، وأجرى إليها الماء، وأدارها بالبيوت، وأحدث من الرفق بالناس، وإدخال الراحة عليهم، ما يقصر عنه الوصف"[3].

وذكر العبدري المخزن الذي يوضع فيه أغراض المسجد، فقال: "وفي الناحية الشمالية من فضاء المسجد بيت مربّع مليح، وهو مخزن المسجد، وبالقرب منه نخلات صغار ناضرة عليها أثر التعاهد بالصون"[4]. ويلاحظ أن وصفه للمخزن جاء مغايراً لما ذكره الرحالة قبله، بل مغاير أيضاً لما ذكره رحالة عصره البلوي الذي وصف المخزن بقوله: "وفي صحنه قبّة بيضاء كبيرة أمامها خمس عشرة نخلة"[5]. ولا أدري سبب هذا التغاير في وصف المخزن، على الرغم من أن الرحالة الذين جاؤوا بعدهم قد وصفوه بنحو ما وصفه البلوي وغيره كما سيأتي.

---

(١) السابق نفسه.

(٢) السابق نفسه.

(٣) انظر رحلة ابن بطوطة، ٣٥٤/١.

(٤) الرحلات إلى المدينة المنورة، ٩٢/١.

(٥) تاج المفرق ص٦٤.

المطلب الثاني: الحركة العلمية في المسجد النبوي كما رآها رحالة العصر المملوكي

تعدّ بعض الرحلات مرجعاً مهماً لرصد الحركة العلميّة في البلاد التي مر بها الرحالة أو زاروها، وهذا ما قام رحالة هذا العصر، لكن انطباعاتهم عن الحركة العلميّة في المدينة المنورة جاءت متباينة، ففين حين تحدث السبتي والبلوي بإسهاب عن اللقاءات العلمية التي جرت لهما؛ وصف العبدري الحالة العلمية ومن لقيهم بالتخلف والجهل، ولعله لم يسعفه الوقت للتعرف عليها بدقة لقصر إقامته في المدينة.

وكان المسجد النبوي الشريف هو المكان الذي ضم غالب اللقاءات العلمية التي سطرها هؤلاء الرحالة.

ويعد الرحّالة السبتي من أكثرهم اهتماماً بهذا الجانب، إذ كان هدفه الأول من رحلته هو لقاء العلماء، وطلب الإجازة منهم، فجمع في رحلته الطويلة من المعارف والعلوم ما ملأ عيبته في سبعة أجزاء، جمعها من أفواه العلماء الذين التقى بهم في كلِّ الأقطار والأمصار.

ومن العلماء الذين التقى بهم في المسجد النبوي وأخذ عنهم:

١- لقاؤه بالشيخة الصالحة أمّ الخير فاطمة البطائحي في المسجد النبوي قرب الروضة، وقد حدّثته بسندٍ متّصلٍ إليها ببعض الأحاديث النبوية الشريفة.

٢- ولقاؤه بالشيخين الفاضلين: ابن الزجّاج العراقي، وابن أخيه عبد الحميد بن أحمد وقال: "قُرئ عليهما وأنا أسمع عند علامة حدِّ الجدار الجوفي الأصلي قبل الزيادة من مسجد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه"[1]. وذكر التاريخ والوقت الذي استغرقته القراءة إلى ما بعد العشاء الآخرة.

٣- ولقاؤه بالإمام النحوي عفيف الدين بن مزروع بن عزاز البصري ثمّ المدني الحنبلي، وذكر أنّه أجاز له ولمن معه، وكتب خطَّ الإجازةِ موثّقاً بذكر التاريخ والوقت والمكان.

---

(١) ملء العيبة، ص٢٦.

٤- وممن لقِيَ أيضـــاً خطيب المســـجد النبوي وإمامه الأديب اللغوي أحمد بن عثمان بن عمر الشافعي المصري، مورداً ما قرأ عليه مع التوثيق بذكر التاريخ والوقت[١].

ومما يحســـب له ولبعض الرحالة الآخرين؛ أنه كان يترجم لكلٍّ من يلتقيه من العلماء، ممن قد لا توجد لهم ترجمة إلا في هذا الرحلات. وكان يورد المسائل[٢]، ويسوق طرفاً من الأجزاء الحديثية التي قرأها، ويعلق على بعض الروايات تعليق عالم خبير، وكان يحرص على ذكر الزمان والمكان والوقت الذي التقى فيه بالعلماء وأخذ عنهم، فمن عباراته في ذلك قوله: "وأسمعني شـيخنا .... عند علامة الجدار الجوفي من مســجد المصــطفى صــلوات الله وسلامه عليه في ليلة أسفر صباحها عن الخامس والعشرين لذي القعدة...". وقوله: "قرأت على الشيخ عماد الدين أمام الروضة المشرفة المطيبة، زادها الله شرفاً وطيباً، ويسر العود إليها قريباً، في الرابع والعشرين لذي قعدة، من عام التاريخ"[٣].

أما الرحالة خالد بن عيســى البلوي: فتعدّ رحلته عملاً أدبياً، يعكس ثقافة عصره في شعره ونثره، وكان يتمتّع بأسلوبٍ أدبي رفيع، يكثر من قول الشعر والتمثّل به في المواقف من صنعته وصنعة غيره، كما كان يتمتّع بذائقة نقديّة في الشعر والتغنّي به بنفسٍ صوفي لا يخفى على أحد، ولعلّ نزعته الصّوفيّة كانت انعكاساً لثقافة عصره حين ذاك

ومن لقاءاته العلميّة:

١-لقاؤه بالشيخ أسعد بن علي اليافعي اليمني الشافعي، صاحب كتاب:" الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز"، وكتاب "فضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين". يقول عنه: "لقيته بالحرم النبوي الشريف، فسمعت منه ورويت عنه... وأجازني إجازةً تامّة، وأذن لي في روايته عنه[٤]".

---

(١) ملء العيبة، ص٦٩.

(٢) من هذا المسائل التي أوردها مسأل فقهية وهي: هل ينسحب ثواب الصلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما زيد فيه؟ أم يختص بمساحة المسجد الأصل؟

(٣) ملء العيبة ص٦٦.

(٤) تاج المفرق، ص٦٧.

٢- ولقاؤه بالشـــيخ جمال الدين محمد بن أحمد بن خلف الخزرجي المصـــري الســـعدي العبادي، قال: "لقيته بالحرم النبوي الشـريف، تجاه الروضـة المقدّسـة، سمعت منه كثيراً من حديث رســـول الله صـــلى الله عليه وســـلّم، منها الأربعين حديثاً للحافظ علم الدين البرزنجي الدمشقي، وأجازني بجميع ما يحمله ويرويه إجازة تامّة"[١].

وأما الرحالة **العبدري** فقد زعم أنّه لم ير مع شدّة البحث وإلحاح الطلب وتكرار السؤال: "من هو بالعلم موصـــوف، ولا هو من بفنٍّ من فنونه معروف" ثم شـــن حملة على إمام المســـجد النبوي فقال: "ولقد لقيت إمام حرمها الشـــريف، وخطيب المنبر العالي المنيف، فوجدت سماء شـرفه من شـياطين الجهل لم تحرس، وتربة قلبه بحبّة المعارف لم تغرس ..." ثُمَّ راح يسـأله عن الذي يتلى في هذا المسجد العظيم ويدرس، فكانّه يكلّم أخرس، إلّا أنّه دله على شيخٍ عراقيٍّ مجاور معنِيّ بالعلم وحمله، هو عفيف الدين أبومحمد عبد الســـلام بن محمد بن مزروع البصـــري التمّار فأخذ عنه، وترجم له، محدداً الزمان والمكان الذي جرى فيه التحديث والإجازة[٢].

وكان له باعٌ في الشـــعر ونظمه فطلب إليه بعضـــهم أنّ يزيد على البيتين المكتوبين على أستار الحجرة وهما:

هنيئاً لكم يا زائرين ضريحه أمنتم به يوم المعاد من الرِّجسِ

وصلتم إلى قبر الحبيب بطيبةٍ فطوبى لمن يضحي بطيبة أويمسي

قال: فقلت ارتجالاً ـ توطئة للبيتين ـ:[٣]

قفوا سلّموا هذا ضريح محمد أما تبصرون النور أبهى من الشمس

وصلوا عليه واسألوا وتوسّلوا إلى الله بالمبعوث للجن والإنس

---

(١) السابق، ص٦٨.

(٢) الرحلات إلى المدينة المنورة ٩٧/١.

(٣) السابق، ص٩٥.

وعرض العبدري إلى مسألة القبلة في المسجد النبوي، وذكرا أنها قبلة قطع؛ لأنه صلى الله عليه وسلم هو الذي أقامها، أو جبريل عليه السلام، وبكل اعتبار فهي مقطوع بدقتها، لأن الحجة في قوله وفعله صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكر العبدري أن قبلة المسجد إلى بيت المقدس مسامتة للجنوب، وليست مائلة عن الجنوب إلى الشرق خلافاً لما ذكره القاضي أبو الوليد الباجي، قال: "بل أقول إنها إلى الغرب أميل، وقد تهممت بذلك فاعتبرته بالمدينة على ساكنها السلام، فوقفت في صحن المسجد حيث أرى المنازل، واستقبلت المحراب، فوجدت سمتي إلى الثريا، وهي ذاهبة عن التوسط شيئاً قليلاً، وأين ذلك من قول الباجي، وأظنه لم يعتبر ذلك بالحس حين رآه"[1].

وأما ابن بطوطة: فلم يتعرض للقاءاته العلمية، وإنما ذكر أنّ إمام المسجد الشريف في عهد دخوله إلى المدينة: بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد عزّالدين الواسطي، وذكر من كان يخطب قبله، وهوسراج الدين عمر المصري، الذي قضى أربعين سنة خطيباً في المسجد النبوي الشريف، وقاضياً لأهل المدينة، وكان ينوب عنه الخطيب محمد بن فرحون، ثمّ تولّى القضاء بعد ذلك جمال الدين الأسيوطي.

كما ترجم لعدد من المجاورين في المدينة منهم: الشيخ المجاورالصالح: أبوعبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالترّاس؛ الذي صار من خدّام المسجد النبوي ومؤذّنيه ورأس الطائفين به. والشيخ الصالح الفاضل أبوالعبّاس أحمد بن محمد المرزوق. والشيخ الصالح العابد سعيد المرّاكشي الكفيف، وأبومهدي عيسى بن حزرون.

وذكر أنّ رئيس المؤذنين في الحرم النبوي الشريف الإمام الفاضل جمال الدين المطري، من قرية مطريّة في مصر، وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله.[2]

---

(١) السابق، ١٠٧، ١٠٨.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ٣٥٧/١.

المطلب الثالث: المشاهدات التي رآها رحالة العصر المملوكي في المسجد النبوي

تعكس المشاهدات التي يرصدها بعض الرحالة ثقافة المجتمع وعاداته وتقاليده، كما تعكس من جانب آخر اتجاهات الرحالة الفكرية والثقافية، واهتماماتهم، ودقة ملاحظاتهم.

وقد أبان الرحالة العبدري عن حرصه على التوثيق، والاتباع، ونبذ التقليد، فذكر أنه شاهد "في حائط المحراب، أمام المصلى، نحو القامتين أو أقل يسيراً، شكلاً ناتئاً أكحل براق، كأنه رأس خشبة أبانوس مخروط، وقد ذكر صاحب كتاب المدينة الشريف الحسيني: أنه عود كان في جدار القبلة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمسك به إذا أقيمت الصلاة..... فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فُقِد، فلم يجده أبوبكر، ووجده عمر في خلافته عند رجل في قباء، وقد دفنه حتى أكلته الأرضة، فأخذ له عوداً فشقه وأدخله فيه، ثم شعبه ورده بموضعه، فما زاد عمر بن عبدالعزيز في القبلة جعله في المحراب". ثم قال معلقاً على ذلك: " والناس يتحيلون للمسه تبركاً به، والحجاج يحرصون عليه، ويرمون ثيابهم إليه، وتراهم يحمل بعضهم بعضاً ليتصلوا به، ولا يعرفون ما هو كما جرت عادتهم في غيره"[(١)]. وقد عرض ابن بطوطة والبلوي لهذا العود الذي في القبلة، وقال البلوي: "وبإزاء القبلة عود يقال إنه مطبق على بقية الجذع الذي حن للنبي صلى الله عليه وسلم، وقطعة منه في وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويتبركون بلمسها ومسح خدودهم فيها"[(٢)].

وقال العبدري: "وفي الصف الأول قريباً من الروضة باب آخر هو نفق في الأرض، يهبط فيه على درج، ويخرج منه إلى حجر في قبلة المسجد، ذكروا أنها حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وينسبونها حجرة حجرة". قال: "وذلك باطل، فإن الروضة المقدسة هي حجرة عائشة رضي الله عنها، وقد دخل غيرها من الحجر في المسجد في زمان الوليد بن عبد الملك"[(٣)].

---

(١) الرحلات إلى المدينة ١٠٧/١.

(٢) تاج المفرق، ص٦٤. والتبرك بما مس جسد النبي صلى الله عليه وسلم جائز كما نص عليه العلماء، لكن ما نقله البلوي غير صحيح؛ لأن الجذع الذي حن للنبي صلى الله عليه وسلم قد بلي كما تفيد الروايات الصحيحة.

(٣) الرحلات إلى المدينة ٩٢/١.

أما الرحالة السبتي فقد رصد لنا ما شاهده من سلام عالمين جليلين على النبي صلى الله عليه وسلّم، قال: "ووقفت أنظر إلى سلام شيخينا ابني الزجاج على النبي صلى الله عليه وسلّم، فجاءا حتّى استقبلا وجهه الكريم، شرّفه الله، والقنديل المعّلق هناك، يكون حذو رؤوسهما، فأدّيا واجب السلام ثم انحدرا يسيراً إلى جهة أيْمانهما فسلّما على أبي بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه، ثمّ انحدرا يسيراً إلى مقابلة عمر رضي الله عنه، فسلّما عليه، ووقفا عندهما، فقالا ما تيسر لهما، ثمّ انصرفا عن أيمانهما، فرأيت أبا القاسم عبد الحميد منهما يبكي، وسمعته يقول وقد ولى: ما أعطي أحد من الشرف ما أعطي أبو بكر وعمر، متى يلم عليه سلم عليهما".[1]

وذكر ابن بطوطة: أنّ خدّام المسجد الشريف وسدنته من الأحابيش وسواهم، وهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف؛ وكبيرهم يعرف: بشيخ الخدّام وهو في هيئة الأمراء الكبار ولهم المرتّبات بديار مصر والشام يؤتى إليهم بها في كلِّ سنة.[2]

وحدثنا عن مشاهداته داخل المسجد الشريف فقال: "وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيام: وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم، والناس قد حلَقوا في صحنه حِلَقاً، وأوقدوا الشمع الكبير. وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه، وبعضهم يذكرون الله، وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة، زادها الله طيباً، والحُداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة، ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين"[3].

□

(١) ملء العيبة، ص٣٦.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ٣٥٧/١.

(٣) السابق، ص٣٦٣.

المطلب الرابع: مسائل اختلف فيها رحالة العصرين العباسي والمملوكي.

إن المتتبع لكلام الرحالة في العصرين العباسي والمملوكي، يجد أنهم اختلفوا في عدد من المسائل؛ وهي:

١- **موقع خوخة أبي بكر رضي الله عنه:**

تقدم معنا في المبحث الأول أنه يوجد تحت المقصورة، على يمين المحراب، باب يهبط منه على درج، وأن ابن جبير ذهب إلى أنه يفضي إلى دار أبي بكر، وأنّه كان طريق عائشة رضي الله عنها إلى دار أبيها، وهو المقصود بالخوخة المنسوبة للصديق، وقد تابعه على هذا ابن بطوطة، إذ ذكر تحت عنوان خوخة أبي بكر قوله: "وفي وسط المسجد الكريم دفّةٌ مطبقة على وجه الأرض؛ مقفلة على سرداب، له درج يفضي إلى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد، وعلى ذلك السرداب كان طريق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى داره". ثمّ عقب بقوله: "ولا شكّ أنّه هوالخوخة التي ورد ذكرها[١]".

بينما ذهب صاحب الاستبصار والعبدري إلى أن هذا الباب يفضي إلى ديار آل عمر، وهذا ما رجحه العلّامة السمهودي، لأن دار أبي بكر المشار إليها في حديث الخوخة كانت في الجهة الغربية من المسجد النبوي، كما تفيد الروايات، لا في الجهة الجنوبية، ويؤكد السمهودي كلامه بما ورد في بعض الطرق أن عمر بن عبد العزيز حينما أراد حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلّم في توسعته للمسجد من الشرق والغرب والشمال، فلّما صار إلى القبلة امتنع عبيد الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار عمته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقال عمر بن عبد العزيز له: لابد لي من إدخالها في المسجد؛ وطال الكلام بينهما حتّى ابتاعها منهم على أن يكون لهم ما بقي منها، وأن يخرجوا من باقيها طريقاً إلى المسجد[٢]".

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ٣٥١/١.

(٢) الرحلات إلى المدينة ١٠٣/١، وانظر: وفاء الوفا ٢٦٤/٢-٢٦٦.

ثمّ عقّب العبدري على ما أورده بقوله: "وهي الخوخة التي في المسجد؛ وأظنّها التي مرَّ ذكرها". إلّا أنه أضاف ملاحظةً دقيقة وهي قوله: "لكنهم ذكروا أنّ خوخة آل عمر كانت تخرج من تحت المقصورة وهي بعيدة منها، إلّا أن يكون طريقها قد غيّر عن موضعه[١]".

٢- **الاختلاف في مواقع مآذن المسجد النبوي:**

يذكر المؤرخون أن عمر بن عبد العزيز لما بنى المسجد النبوي الشريف جعل له أربع مآذن، لكن سليمان بن عبد الملك هدم واحدة منها حين أشرف مؤذن المسجد عليه وهو في داره، وبقيت للمسجد ثلاث مآذن، وقد اختلف الرحّالة في ذكر مواضعها، و مرّ معنا قول ابن جبير: إنّ إحداهما في الركن الشرقي من القبلة، والباقيتان في ركني الجهة الشمالية، بينما ذهب صاحب الاستبصار إلى أنّ الأولى على ركن القبلة الشرقي، والثانية على ركنه الغربي، والثالثة على ركن مؤخّر المسجد؛ ووافقه على ذلك العبدري فقال: "ثلاث صوامع، اثنتان على ركنيه الجنوبيين، وواحدة في مؤخّر المسجد[٢]".

ثمّ أحدثت مئذنة جديدة للمسجد في زمن البلوي فذكر أنّ للحرم أربع صوامع في الأربعة الجوانب.[٣]

٣- **اختلافهم في عدد أساطين المسجد (أعمدته):**

رأينا فيما سبق أن ابن جبير عد أساطين المسجد فبلغت ٢٩٠ عموداً، بينما ذهب صاحب الاستبصار إلى أنّها ٢٧٦ عموداً، واتبعه العبدري فقال: "ذكروا أنّ أساطينه ٢٧٦ أسطوانة وأنا لم أعدّها لشغلي بغير ذلك[٤]". وهذا الاختلاف بين القولين محتمل، وقريب، إلا أن الرحالة البلوي شط في ذلك وزعم أنّ عدد سواريه ٨٠٠ عموداً[٥]، وهذا لعمري رقم كبير لم يذكره أحدٌ قبله ولا بعده، ولعله خطأ من الناسخ.

---

(١) الرحلات إلى المدينة ١٠٣/١.

(٢) الرحلات إلى المدينة ٩٣/١.

(٣) تاج المفرق، ص١٦٥.

(٤) الرحلات إلى المدينة ٩٣/١.

(٥) تاج المفرق، ص٦٤.

٤- **الاختلاف في مقدار طول المسجد وعرضه:**

أعاد البلوي ما ذكره ابن جبير في أنّ طول المسجد الكريم ١٩٦ خطوة، وأنّ عرضه ١٢٦ خطوة، إلّا أنّه أضاف: "وهو بالذراع ٣٠٠ طولاً، و٢٠٠ عرضاً[١]". وهو يقترب قليلاً مما ذكره صاحب الاستبصار.

□

(١) المرجع السابق نفسه.

المبحث الثالث:

المسجد النبوي الشريف في عيون رحّالة العصر العثماني الأوّل (٩٢٣ ـ ١٢٢٠هـ)

تمهيد: من الملاحظ أننا كلما اقتربنا في الزمن أكثر كلما وجدنا نمواً مطرداً في عدد الرحلات التي تصل إلينا، ففي العصر العباسي لم نقف سوى على أربع رحلات، ثم ازداد العدد في العصر المملوكي إلى خمسة، وأما في هذا العصر فقد وقفت على ثماني عشر رحلة، تفاوتت في أهميتها والمعلومات التي تضمنتها بين القديم المطروق، والجديد المكتشف الذي يعرض لأول مرة، ولعل ذلك يعود إلى استقرار الدولة في هذا العصر مدة طويلة، وظهور وسائل جديدة تساعد على سهولة التنقل والترحال.

وإليك موجزاً بهذه الرحلات، يعرف بها وبأصحابها، مرتبة وفق تسلسلها الزمني ابتداء من أقدمها وانتهاء بآخر ما وصل إلى أيدينا من هذا العهد:

الرحلة الأولى: "إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت"[(١)] للرحالة: أحمد بن عبد الله بن محمد السلجماسي الفلالي المعروف بابن أبي محلي(٩٦٧-١٠٢٢هـ)[(٢)]

زار المدينة عام ١٠١٤هـ، وأقام فيها ثلاثة أيام، لاحظ تكرر صلاة الجماعة مرتين في محرابين، وذهب إلى أنه تفرقة لجماعة المسلمين، ودعا إلى توحيد الصلاة على أي مذهب من مذاهب السنّة.

الرحلة الثانية: " أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب"[(٣)] للرحالة: محمد بن أحمد بن عبدالعزيز القيسي، الشهير بالسراج والملقب بابن مليح (بعد ١٠٤٢هـ) [(٤)]

---

(١) طبعت الرحلة بتحقيق: عبدالمجيد القدوري؛ الرباط المغرب؛ ١٩٩١م. انظر: "رحلة الرحلات؛ مكة في مئة رحلة مغربية و رحلة؛ عبدالهادي التازي؛ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٤٢٦هـ، ٢/٥٦٣-٥٦٤.

(٢) الرحالة ابن أبي محلي: عالم متصوف، ادعى أنه المهدي المنتظر، فتبعه كثيرون في مسقط رأسه سلجماسة، فثار على سلطان مراكش زيدان الناصر، وزحف بأتباعه إلى سلجماسة فاستولى عليها، ثم على العاصمة مراكش، فملكها وأظهر العدل، وبعد ثلاث سنوات هاجمه يحيى بن عبد الله الحاحي، فقتله وأنهى ملكه، كان فقيهاً أديباً بليغاً، له عدة مؤلفات. السابق نفسه.

(٣) نشرت بتحقيق : محمد الفاسي، ونشرت أيضا ضمن أبحاث ملتقى العقيق؛ الدورة الثالثة "مجلة نادي المدينة" السنة الثالثة؛ العدد: ٣٩-٤٠؛ تنيضب عوادة الفايدي.

(٤) الرحالة ابن مليح: من مدينة مراكش، من عائلة (القيسي) العربية المعروفة فيها، وكان شاعراً صوفياً، على اطلاع واسع على الحركة العلمية والأدبية.

زار المدينة، مطلع محرم ١٠٤٢هـ، ومكث فيها ثلاثة أيام، تحدث عن الروضة الشريفة، وفرش المسجد النبوي، يتميز أسلوبه بكثرة المحسنات البديعية، ويكثر من الاستشهاد بالشعر للإفصاح عن مشاعره، من نظمه ومن نظم غيره.

الرحلة الثالثة: "الرحلة العياشية للبقاع الحجازية" المسمى: "ماء الموائد"[١]؛ المؤلف: أبوسالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف العياشي (١٠٠٣ـ ١٠٩٠ هـ) [٢]

حج عام ١٠٧٢ هـ، وزار المدينة المنورة، ومكث فيها سبعة أشهر، التقى خلالها بالعلماء، وبحث معهم مسائل علمية كثيرة، وتبادل معهم الإجازات، كما اهتم بالجوانب العمرانية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والعادات والتقاليد، لذلك تعد رحلته موسوعة غنية متنوعة، رصدت جوانب الحياة المختلفة في المدينة المنورة في القرن الحادي عشر الهجري.

الرحلة الرابعة: "الرحلة الحجازية"[٣] للرحالة التركي أوليا جلبي[٤] (١٠٢٠-١٠٩٥هـ)، حج سنة ١٠٨١هـ برفقة المحمل الشامي، وزار المدينة المنورة، ووصف معالم المسجد النبوي، وذكر روايات مليئة بالقصص الشعبية والخرافات، تتعارض مع التاريخ وأخبار السيرة النبوية.

الرحلة الخامسة: "الرحلة الناصرية "[٥] لأبي العباس أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن ناصرالدرعي (١٠٥٧ـ١١٢٩هـ)[٦]، حجَّ مرات عديدة آخرها سنة ١١٢١هـ، ثم زار المدينة ومكث فيها خمسة أيام، ألقى خلالها بعض الدروس في المسجد النبوي، كما التقى فيها

---

(١) طبعت الرحلة بتحقيق: أحمد فريد المزيدي.

(٢) الرحالة: أبو سالم العياشي: أحد المؤرخين، تلقى مبادئ العلوم في مسقط رأسه في مدينة فاس بالمغرب، ثم قام برحلته إلى مصر والحجاز، عام ١٠٧٢ هـ تبادل فيها الخبرات العلمية مع كبار العلماء، وأخذ عنهم وأخذوا عنه، ثم عاد إلى بلاده يدرس ويؤلف، ترك عدة مؤلفات في الفقه والوعظ، والرحلات. انظر: محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف؛ مرجع سابق؛ ص: ٢٦٩.

(٣) ترجمها للعربية: الصفصافي أحمد المرسي؛ ط/بدون؛ دار الآفاق العربية؛ القاهرة ١٩٩٩هـ.

(٤) الرحالة أوليا جلبي بن درويش محمد ظلي الملقب: بالحافظ، رحالة عثماني، كان مولعاً بالسفر من أول شبابه، بدأ رحلاته في التاسعة عشرة من عمره، زار بلاداً كثيرة في آسيا وأوربا، ثم حج، وعاد إلى استانبول وتوفي فيها، ألف الرحالة كتاباً ضخماً عن رحلاته المتعددة في عشرة مجلدات.

(٥) طبعت بتحقيق: عبد الحفيظ الملوكي الناشر: دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ٢٠١١م.

(٦) أبو العباس الدرعي: أحد الفقهاء والشعراء، كان شيخاً للزاوية الناصرية المنسوبة لأسرته، والتي زاد نشاطها وكثر أتباعها في عهده. انظر: "كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين" عواطف محمد يوسف؛ ط/ بدون؛ دار الملك عبدالعزيز؛ الرياض ١٤٢٩؛ ص ٧٦.

بعدد من العلماء، نقل كثيراً عن رحلة أبي سالم العياشي، مع إضافات هامة، لذا تعد رحلته هذه من المصادر الغنية بمختلف الجوانب التاريخية والأدبية والاجتماعية.

الرحلة السادسة: "بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام"[1] للشيخ عبد المجيد المرادي(١١٦٣هـ)[2] ذكر في رحلته أنه حج سنة ١١٤٨هـ، تغلب على كتابته الصنعة البديعية والنزعة الصوفية واضطراب الوزن في نظمه، مكث في المدينة بعد الحج ثلاثة أيام، قيد خلالها مشاهداته ونقل عمن سبقه بعض الفوائد وبث مشاعره.

الرحلة السابعة: "الرحلة الحجازية"[3] للشيخ: محمد الجزولي (١٧٠٦-١١٨٩هـ) [4]

خرج للحج في موسم ١١٥٢هـ، وبعدها زار المدينة ومكث فيها ثلاثة أيام، التقى فيها بعدد من العلماء، وترجم لهم، ورصد أهم المعالم التي مر بها؛ كما اهتم بالجوانب الاجتماعية والعادات والتقاليد وتقويم ما خالف منها الكتاب والسنة.

الرحلة الثامنة: "الرحلة الورثيلانية" الموسومة: "بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"[5]؛ للشيخ: الحسين بن محمد الورثيلاني.(١١٢٥- ١١٩٣هـ)[6]، خرج للحج سنة ١١٧٩هـ، زار بعده المدينة، وكان على اطلاع على كتابات المؤرخين والرحالة الذين سبقوه

---

(١) طبعت بتحقيق: محمد زينهم عرب. الناشر: الدار الثقافية للنشر، القاهرة. ١٤٢٧هج.

(٢) الرحالة: عبد المجيد بن علي المنالي الحسني الإدريسي المرادي(...،١١٦٣هـ) أديب من مدينة فاس بالمغرب، لم نعثر على ترجمة مفصلة عن حياته، ترك مؤلفات ومنظومات في الفقه والتراجم بالإضافة إلى هذه الرحلة.

(٣) تحقيق: عبد العالي لمدبر؛ الناشر: مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرابطة المحمدية لعلماء الرباط، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م. توجد مخطوطتان من الرحلة إحداها بالمكتبة الملكية برقم/٤٠٥والأخرى بالخزانة العامة بالبرباط برقم/٨٩٦.

(٤) الرحالة: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبدالله الجزولي الحضيكي السوسي: فقيه وأديب، حج سنة ١١٥٢هـ، والتقى في طريقه بعلماء من مصر والحرمين واليمن والشام فأخذ عنهم، وأقام في الأزهر مدة، ثم عاد لإدارة زاوية من زوايا العلم، كان من المتمسكين بالسنة شديداً على أهل البدع، له مؤلفات في الحديث والفقه والآداب والتراجم وهذه الرحلة. انظر: "مصادر تاريخ الجزيرة العربية " عباس الجرادي؛ ص: ٣٧٣؛ و د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان؛ ص: ٢٢٢ .

(٥) الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة؛ ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

(٦) الرحالة الورثيلاني: مؤرخ وفقيه ومتصوف وشاعر، من قبيلة الورثيلاني التي كانت تنزل قرب بجاية في الجزائر؛ استغل طريق رحلته إلى الحج في طلب العلم، فأخذ عمن لقيهم من شيوخ مصر والحجاز، له مؤلفات أخرى في التصوف والوعظ. انظر: محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف؛ مرجع سابق؛ ص: ٣٥٣.

إليها، فنقل عن السمهودي والعياشي، وعبر عن مشاعره بما نظمه من الشعر في مواقف كثيرة، ورحلته مصدر ثر بالمعلومات عن المدينة المنورة من كافة الجوانب.

الرحلة التاسعة: "الرحلة الناصرية الكبرى"[١] للشيخ محمد بن عبد السلام التامكروتي التامكروتي (١١٤٥-١٢٣٩هـ)[٢] زار المدينة المنورة خلال رحلة الحج، وكتب عن معالمها الرئيسية، والتقى فيها بعدد من علمائها والمجاورين فيها.

الرحلة العاشرة: "الرحلة الهندية إلى البلاد العربية."[٣] للرحالة الهندي: رفيع الدين بن فريد الدين الكهنوي المراد آبادي (١١٣٤-١٢٢٣هـ)[٤]، حج المؤلف سنة ١٢٠١هـ، ومر في طريقه بعدد من البلدان، إلى أن وصل إلى المدينة في السادس من ربيع الأول ١٢٠٢هـ، وأمضى فيها خمسة أشهر، اطلع خلالها على معالمها والتقى بعلمائها والمجاورين فيها وترجم لبعضهم، أضاف تفاصيل جديدة تتعلق بالجانب الاجتماعي، والعادات والتقاليد الخاصة بأهل المدينة الأصليين والمهاجرين وأصولهم.

الرحلة الحادية عشرة: "رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة"[٥] للرحالة: محمد بن محمد الطيب؛ المعروف بالشرقي (١١١٠-١١٧٠هـ)[٦]، زار المدينة، وأمضى فيها ثلاثة أيام، سجل خلالها مشاهداته لمعظم معالمها، وترجم لمن التقى فيها من العلماء والمجاورين، وأكثر فيها من رواية الشعر ونظمه.

---

(١) تحقيق: د.المهدي الغالي؛ الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية؛ الرباط ١٤٣٤هج ٢٠١٣م.

(٢) الرحالة التامكروتي: من علماء المالكية، ومحدث وأديب. نشأ في بيت علم في مدينة تامكرت بالمغرب، ثم رحل في طلب العلم وأخذ العلم في رحلته عن عدد من علماء المشرق في مصر والحرمين، ترك عدداً من المؤلفات في الفقه والحديث والفتيا والرحلات. انظر: "رحلات الحج" مرجع سابق؛ ص٢٥٢.

(٣) ترجمها إلى العربية: د. سمير عبد الحميد إبراهيم؛ الناشر: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م.

(٤) الرحالة رفيع الدين: أديب هندي ملم بالفقه من مدينة مراد آباد، أخذ عن شيوخها ثم سافر إلى دلهي وتتلمذ على الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي. انظر: جلال الدين الحفناوي؛ مرجع سابق؛ ص: (٩٣)

(٥) تحقيق: عارف أحمد عبد الغني؛ الناشر: دار العراب ودار نور حوران؛ دمشق ١٣٣٤هـ ٢٠١٣م.

(٦) الرحالة فخر الدين: فقيه من مدينة فاس، انتقل عام ١١٤٣هـ إلى الحجاز بعد الاضطرابات السياسية التي حدثت في منطقته، فجاور في المدينة المنورة، وباشر التدريس في المسجد النبوي، ثم تولى الخطابة والإمامة فيه، وتتلمذ عليه كثيرون أشهرهم الزبيدي صاحب معجم تاج العروس. الرحلات إلى المدينة المنورة ٥٥٥/٢.

الرحلة الثانية عشـــرة: "نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس"[١] لعباس بن علي الموســوي (١١٢٠-١١٨٠هـــ)[٢]، زار المدينة مرتين، الأولى سـنة ١١٣١هـــ، ذكر فيها بعض معالم المدينة، والثانية سـنة ١١٤٠هـــ، ذكر فيها أنه عرض شـعره على طائفة ممن لقيهم فيها من العلماء.

الرحلة الثالثة عشرة: "النفحة المسكية في الرحلة المكية"[٣] للشيخ: عبد الله بن حسين البغدادي السويدي (١١٠٤-١١٧٤هـــ)[٤] ذكر في رحلته هذه أنه خرج في قافلة الحج سنة ١١٤٧هـــ فحج وزار المدينة وأمضى فيها ثلاثة أيام، التقى خلالها بعدد من العلماء والمجاورين، وأقرأ أوائل صحيح البخاري في الروضةالمطهرة.

الرحلة الرابعة عشـــرة: "إحراز المعالي والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشـريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب."[٥] للوزير الرحالة: محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسـي (١٢١٣هـــ)[٦]، زار المدينة وأمضـى فيها ثلاثة أيام، اطلع خلالها على عدد من معالمها الرئيسية، يتميز أسلوبه بالعفوية وكثرة الاستشهاد بالشعر، ولم يذكر عن المسجد النبوي شيئا ذا بال.

---

(١) قدم له واعتنى به: محمد مهدي الخرسان؛ الناشر: المطبعة الخيرية في النجف الأشرف ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.

(٢) الرحالة عباس بن علي: رحالة أديب ينتسب إلى الأشراف الحسينيين، نشأ في مكة المكرمة، وطوف في العراق وإيران والهند واليمن، التقاه والي مخا باليمن أحمد بن يحيى الخزندار، ففرض له ما يعيش به فاستقر بها سنة ١١٤٨هـ، وجمع للأمير ما تفرق من أخبار رحلاته في هذا الكتاب وأهداه إليه. انظر "رحلات الحج" ١/١٧٢-١٧٣.

(٣) طبعت بتحقيق: د.علي عمر؛ الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. وطبع طبعة أخرى.

(٤) الرحالة السـويدي: فقيه ولغوي وشـاعر، من بغداد، نشـأ بعد وفاة أبيه في كفالة خاله الشـيخ أحمد سـويد، فلقب بالسـويدي، رحل إلى الشـام والحجاز، فحج وزار بعدها المدينة، والتقى بعلمائها وأخذ عنهم، ثم قفل راجعاً إلى بغداد، ترك عدداً من الكتب والرسائل في الحديث والفقه واللغة. انظر: رحلات الحج ؛ مرجع سابق؛ ١٤٢/٤.

(٥) طبعت بتحقيق: محمد بوكبوط؛ الناشر: دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي ٢٠٠٣م. والمؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ بيروت لبنان؛ ط/١ ؛ ٢٠٠٣م.

(٦) الرحالة المكناسي : كاتب من أهل مكناسة بالمغرب، شغل منصب وزير تارة وسفير تارة أخرى عند السلطان محمد بن عبد الله (حاكم المغرب من ١٧٩٠-١٧٥٧م) وعمل على تحسـين العلاقات بين المغرب وبين تلك الدول. كلفه السـلطان محمد بن عبد الله بالسفر إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٠٠هـــ، فقام بها وعاد بعدها مع القافلة العثمانية والقافلة الشامية إلى الحج. انظر: "رحلات الحج " مرجع سابق؛ ص: (٢٦٤-٢٦٥-٢٧٤)

الرحلة الخامسة عشرة:"رحلة ابن علوان إلى الأماكن المقدسة والأحساء والكويت والعراق"[1] لمرتضى بن علي بن علوان (بعد ١١٢٠هـ)[2] زار المدينة المنورة في ١٩صفر ١١٢١هـ ومكث فيها خمسة أيام، ولم يذكر عن المسجد النبوي شيئا ذا بال.

(١) طبعت بتحقيق: أ.د سعيد بن عمر آل عمر؛ ط/٢ ؛ مكتبة المتنبي؛ الدمام ١٤٢٥هـ.

(٢) لم نعثر له على ترجمة، ويظهر من خلال ما كتبه عن نفسه في رحلته منها أنه من أهل دمشق، ينتمي إلى الأشراف العلويين. انظر: " رحلات الحج ١١٨/٥-١١٩-١٢٠-١٢١.

المطلب الأول: المسجد النبوي كما رآه رحالة العصر العثماني الأول.

تمهيد: يعد رحالة كل عصر امتداداً للعصر الذي قبله، وتوطئة للعصر الذي يليه، وعليه فلا نستطيع أن نتحدث عن كل عصر بمعزل عما قبله أو بعده، لأن الأزمان متباعدة، والأحداث متسارعة، فلربما جرت بعض الأحداث في أواخر عصر، فلا تذكر في رحلات ذلك العصر، بل نجدها مبثوثة في رحلات العصر الذي يليه، فأكثر رحالة العصر المملوكي مثلاً لم يدركوا الحريق الثاني للمسجد النبوي وإعادة عمارته على يد الملك الأشرف قايتباي، لذلك لم يذكروا شيئاً عن هذا الحادث وما جرى بعده من عمارة وبناء، بينما نبه رحالة هذا العصر إلى ذلك، وحددوا الزمان الذي وقع فيه، والعمارة التي جرت له، قال الرحالة التامكروتي: "إنه احترق إثر نزول صاعقة من السماء، وذلك في ليلة الثالث عشر من رمضان، سنة ست وثمانين وثمان مئة هجرية على الأرجح، وقيل: سنة واحد وثمان مئة؛ في أيام الملك الأشرف قايتباي في زمن الحافظ السيوطي فبناه هذا البناء الموجود إلى الآن".[1] وقال المرادي في رحلته: "بلوغ المرام: "الحجرة المنيفة الحاوية على القبور الشريفة ليست كما ذكرها عروة ولا غيره بعده؛ لأنها احترقت ثم أنشئت وجددت في عام واحد وثمان مئة..."[2]

وبالنظر إلى كثرة رحلات هذا العصر، والمعلومات التي سجلت عن المسجد النبوي الشريف فيه؛ فإنني سوف أقتصر على ذكر المعالم التي تغيرت ملامحها مما لم يدونه رحالة العصر السابق، وما لاحظه رحالة هذا العصر من متغيرات:

فقد تحدث التامكروتي عن محيط المسجد فقال: "والمسجد الآن على ما شاهدت قد دارت به أزقة متسعة نظيفة، ولم يغرز أحد خشبه في بعض جدرانه، بل لم تتصل به دار، ولا فتحت إليه طاقة ولا شباك يشرف منهما إليه عكس المسجد الحرام بمكة، وكأنهم امتثلوا في ذلك حديث الصحيحين وغيرهما من الأمر بسد الخوخات عدا خوخة أبي بكر وعلي في رواية".[3]

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة، ٧٤٦/٢، نقلاً عن الرحلة الناصرية الكبرى.

(٢) الرحلات إلى المدينة المنورة، ٦٣٢/٢، نقلاً عن بلوغ المرام.

(٣) انظر: "رحلات الحج" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٢)

وانفرد التامكروتي بمعلومة لم يذكرها أحد غيره، حيث نقل أن للمسجد النبوي سقفين "أحدهما فوق الآخر، وسقفه الذي يلي المصلين مرتفع جداً" ثم قال: "وسطحه لا يخلص له أحد إلا المؤذنون، حاشى أيام الموسم فإنه يباح لكل أحد، ولقد – والله – راودت بعض المؤذنين وبعض الأغوات بأجرة على أن يتركوني أصعد تبركاً ووقوفاً على حقيقة الأمر، فامتنعوا واعتلوا بأنه سوء أدب مع النبي - صلى الله عليه وسلم"[1]. وإذا كان يعني بالسقفين سقف المسجد الأول وسقف التوسعة؛ فمحتمل، أما إن كان يقصد سقفين فوق بعض فهذا غير صحيح.

وتحدث عن المآذن، فقال: "وله خمس مئذنات أفضلها التي في الركن الشرقي الجنوبي، وهي أقرب للنبي صلى الله عليه وسلم، وتقابلها في الركن الشرقي الشمالي الموالية لها في الارتفاع والحسن، ثم ثلاث مصطفات في الركن الغربي إحداهن على باب السلام، والأخرى على باب الرحمة، والأخرى أمامها، وكلها من عمل قايتباي إلا السليمانية، وهي الشرقية الشمالية فقد بناها السلطان سليمان"[2]. والصحيح أن نسبة المئذنة السليمانية للسلطان سليمان نسبة تجديد لا نسبة إنشاء، فقد كانت موجودة في العصر لاسابق كما مر معنا.

وتعد القباب أحد العناصر التي جدت في المسجد النبوي في العصر السابق، حيث عمل السلطان قايتباي سبع قباب إضافة إلى القبة التي على الحجرة الشريفة، لكنني لم أجد من أشار إليها من رحالة ذلك العصر، وقد وصفها أوليا جلبي مع نوافذ المسجد فقال: "وغطت القباب من نواحيها الأربع بالزجاج الملون، الذي يملأ المكان ضياءً وبهاء عندما تشرق الشمس، وتسطع أشعتها.... ولا توجد أي نوافذ في الجدار الذي أمر ببنائه سيدنا عثمان، ولكن هناك نافذة، ذات إطار نحاسي، تجاه المرقد النبوي الشريف، ونافذة أخرى أمام المقصورة، المقامة عند قدمي النبي صلى الله عليه وسلم المباركتين"[3].

---

(١) السابق نفسه.

(٢) انظر: الرحلات إلى المدينة، مرجع سابق؛ ص: (٧٤٧)

(٣) "الرحلات الحجازية" المؤلف: أوليا جلبي درويش محمد ظلي؛ مرجع سابق؛ ص: ١١٦.

وحافظ المسجد النبوي في هذا العصر على أبوابه الأربعة، قال الرحالة التامكروتي: "وأبوابه أربعة : باب السلام، في الجانب الغربي قريب من الصف الأول، عن يمينك وأنت مستقبل القبلة، وباب الفتح ويقال : باب عاتكة، وهو قريب منه في الجدار الغربي قريب من الصحن، وبابا جبريل والنساء، وهما في الجانب الشرقي قريب من الحجرة، ولا باب في القبلة ولا فيما يقابلها من الصف الأخير، وعلى كل من بابي الفتح والسلام من يحرس للناس نعالهم بأجرة، فلا أرى أحداً يدخل بها"[١]. ومن الملاحظ أن ما سماه هنا باب الفتح؛ كان قد سماه العبدري في العصر السابق باسم باب الرحمة.

ووصف الرحالة جلبي باب السلام فقال: "هو باب روعة في الفن، صنع من النحاس الأصفر المصقول"[٢].

ونبه العديد من الرحالة إلى وجود محراب جديد في المسجد النبوي لم يكن من قبل، في إشارة منهم إلى المحراب الذي بناه طوغان شيخ وجدده السلطان سليمان القانوني على يمين المنبر الشريف. قال ابن محلي في رحلته: "إصليت الخريت: "ولقد شاهدت بالحرم النبوي، شرفه الله، محرابين في مسجده صلى الله عليه وسلم الذي كان يصلي فيه أيام حياته، قبل أن يزاد عليه في زمن عثمان – رضي الله عنه – ومن بعده، أما أحدهما: فمحرابه الشريف، وهوالذي بإزاء قبره الرفيع، والآخر أحدثوه عن يمينه ليصلي فيه الحنفي أوالشافعي، مناوبة دون المالكي والحنبلي[٣]، لقلة أتباع الإمام أحمد اليوم، وقلة أصحاب مالك"[٤].

وذكره الرحالة التامكروتي في سياق حديثه عن المحاريب التي في المسجد النبوي، فقال: "وفي المسجد الآن محاريب أحدها القديم النبوي وهوالآن في الصف الثالث اليوم ومحل

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ٢/٧٤٧.

(٢) المرجع السابق؛ ص: (٦٩)

(٣) وما ذكره هنا ابن محلي ومن بعده التامكروتي أصح مما ذكره أوليا جلبي ص٥٣ بقوله: " وعلى الجانب الأيمن من المحراب أيضاً، يوجد محراب لكل من الإمام الشافعي، والإمام المالكي، والإمام الحنبلي" لأن أوليا جلبي عرف عنه عدم الدقة في وصفه كما سيأتي.

(٤) ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته: " الإصليت الخريت" تحقيق: عبدالمجيد القدوري؛ منشوراط عكاظ؛ المغرب؛ ١٩٩١م. ص١٧٧ فما بعدها.

المنبر القديم عن يمينه، ... وبينه وبين الحجرة الشريفة زهاء خمسين ذراعاً، وفي الصفين المزيدين للقبلة محراب آخر، وعن يمين القديم آخر لا أدري ما سببه، ولعل الإمام المالكي أو الحنبلي كان يصلي به في سالف الأزمان، وأما الآن فليس للمالكي ولا للحنبلي إمامة في سائر الصلوات الخمس إلا في الجمعة، فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، جرياً على عادتهم في الحرمين، حرصاً على أكل الوقف، فيتوارثون ذلك عن آبائهم حتى أفضى بهم ذلك إلى إمامة من ليس ذلك في العلم والدين، بل وربما تولاها بذلك حدث الأسنان"[1].

وتحدث الرحالة عن المنبر الشريف، وذكروا أنه قد غير مراراً، إلا أنهم أجمعوا على أن موضعه ظل ثابتاً على مدى العصور، فبعد أن احترق مع ما احترق من المسجد عام ٦٥٤هـ ولم يبق منه إلا قطعة عود؛ استبدل بمنبر آخر من ساج، ثم بُدّل غير مرة، قال ابن مليح في أنس الساري: "المنبر المبارك اليوم لم ير الراؤون مثله، حسن الانتزاع، جميل الإبداع، أصله من رخام، وترصيعه من الصندل الأحمر والأبيض والأصفر"[2]. ثم راح يذكر الكتابات التي وشي بها. وادعى الرحالة أوليا جلبي أن المنبر في زمنه كان من الفضة الخالصة فقال: "وعلى الجانب الأيمن للمحراب، يوجد المنبر الذي أمر السلطان مراد الثالث بصنعه، من الفضة الخالصة، والذي لم أر مثله في العالم الإسلامي أجمع". [3] وما ذكره غير صحيح، بل هو من المرمر النقي، مطعم بشيء من الفضة، وهو محفوظ إلى اليوم.

ومن الأمور التي جدت في هذا العصر؛ تمييز أسطوانات الروضة الشريفة عن غيرها، فقد ذكر ابن مليح " **أنها ميزت** بالزليج (الورنيش) [4] الأخضر لتتميز عما عداها من أماكن المسجد". "وفرشت بالزرابي فوق حصائر تذهل البصائر، ويقال: إنه المسجد القديم، وما عداه مفروش برمل"[5].

---

(١) انظر: "رحلات الحج" أحمد محمد محمود؛ مرجع سابق؛ ص: (٢٥٢).

(٢) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٨٧/١.

(٣) "الرحلات الحجازية" المؤلف: أوليا جلبي درويش محمد ظلي؛ مرجع سابق؛ ص: ٦٩.

(٤) الزليج: ألواح لماعة مطلية بالزليج؛ أي: الورنيش؛ تستعمل بلاطا وكساء للجدران؛ انظر: "تكملة المعاجم العربية؛ ٣٤٥/٥.

(٥) مجلة نادي المدينة" السنة الثالثة؛ العدد: ٣٩-٤٠؛ تنيضب عوادة الفايدي؛ ص: ١٧٩-١٨٠.

ويلاحظ أن فرش المسجد قد تغير عما كان عليه في العصر الماضي، فقد ذكر التامكروتي: "أن المسجد مفروش كله عدا الصحن والصف الأخير، مع ما هو عليه من الارتفاع على سائر المسجد"[١]. ووصف صحن المسجد فقال: "صحنه اليوم ليس بذلك في الوسع، وهو فيما زيد في مؤخره، وقد فرش بالحصباء، وبه نخلات ثلاث يجنى ثمرها على ما قيل، ويذهب بها للأمير العثماني إلى القسطنطينية".

ثم أشار إلى مخزن المسجد الذي سبق ذكره، فقال: "وبقرب النخلات بيت القناديل"[٢] وذكره في موضع آخر فقال: "ثم عمل الخليفة الناصر سنة ست وسبعين وخمسمائة في صحنه قبة لحفظ ذخائر الحرم".

كما وصف جلبي الكتابات والنقوش التي في المسجد فقال: "وما أن يلج الزائر من باب السلام، إلى الداخل حتى يرى هذه الأسطر التالية، والتي كتِبت بخط التعليق الجلي على لوحة من الورق الأزرق في قامة الرجل، علقت على زاوية الجانب الأيسر: "إذا كان لقوم العرب آيين، ... فأنت فخر المؤمنين، وسيد الكونين أنت فليحشرني الله.. لأمسح الجبين بقبرك.. وألا أبرحه"[٣]، وعلى الزاوية اليمنى من الباب نفسه نقشت الآية الكريمة: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[٤] بالخط الجلي، وامتدت حتى محراب سيدنا عثمان -رضي الله عنه- ومن باب السلام حتى باب جبريل سطرت سورة الفتح الشريف. وعلى زاوية الشافعية من ناحية جدار سيدنا عثمان يوجد هذا التأريخ: "فيض حقدن دوشدى تاريخ دعاء خير ايله دين ودعاسن معمى ايده رب العالمين. [١٠٣٢] هـ"[٥]

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ٢/٧٤٧.

(٢) انظر: "رحلات الحج" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٢)

(٣) مكان النقاط كلمات غير مفهومة، ولعلها من الترجمة.

(٤) سورة التوبة: ٢١.

(٥) الرحلات إلى المدينة المنورة ١/٤٠٦.

وأما الحجرة الشريفة فقد أشار العديد من الرحالة كالتامكروتي والمرادي إلى تجديد بنائها مع المسجد بعد الحريقين؛ الأول والثاني. قال التامكروتي: "والحجرة النبوية الشريفة ليست كما ذكر عروة ولا غيره؛ لأنها احترقت ثم أنشئت ثم احترقت ثم أنشئت، ثم جددت في عام واحد وثمانين وثمانمائة من عمل قايتباي، وقيل عام ستة وثمانين وثمانمائة"[١].

وقد ساق خبراً عن شاهد عيان وصف بناء القبة على القبور الشريفة فقال: "ثم بنيت عليها قبة صغيرة كقباب صلحائنا في هذا الزمان، ليست بمثلثة ولا بمربعة ولا بمخمسة، أسطوانية البناء من أسفل ومن فوق، ولم تبق لها عدا طاقة من أعلاها يخرج منها النور، ثم على القبة المذكورة قبة أخرى أعظم منها لكنها إلى التخميس أقرب، وهي على ثلاث طبقات: الطبقة الأولى التي تلي الأساس، والأساس منشأ بحجارة سود، ملبسة بالرخام الأبيض غير الرخامة التي فيها المسمار الفضي فإنها حمراء جدا، والطبقة الثانية من الآجر، والطبقة الثالثة من العود فيها تربط الكسوة، وليست بمطموسة كما هي الأولى. ثم على القبتين قبة شامخة تعلو الصومعة أو تقرب منها، وهي مربعة على أركان أربعة وسوار[٢] عشر غير الروضة الصغيرة، وأرضها مفروشة بالرخام..."[٣].

ونقل الحضيكي عن المطري إنكار عدد من العلماء بناء الحاجز النحاسي حول الحجرة، فقال: "الشباك الذي حول الحجرة اليوم أحدث سنة ٦٦٧هـ، وقد أنكره العلماء، لأنه دخل فيه قطعة من الروضة مما يلي بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ارتفاعه نحو قامتين؛ ثم رفعه ثانياً بعض الملوك حتى أوصله السقف"[٤].

كما تحدث العديد من الرحالة عن أبواب الحجرة، يقول التامكروتي: "ولها أربعة أبواب: باب التوبة، وهو في قبلة المسجد، في شباك من النحاس، يفتح عند الشدائد ليس إلا، وباب الوقود، يفتح كل ليلة لوقود المصابيح، وباب فاطمة كذلك يدخل منه بالشمع وبالمبخرات كل ليلة، وفي ليلة الجمعة لكشف الصندوق المواجه لرأسه عليه الصلاة

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ٦٣٢/٢، ٧٥١.

(٢) جمع سارية.

(٣) انظر: "رحلات الحج" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٢)

(٤) الرحلات إلى المدينة المنورة ٦٦٢/٢، نقلاً عن الرحلة الحجازية.

والسلام، ورشه بماء الورد وغيره من الطيب، وفي صبيحتها لكنس الحجرة، وباب التهجد: تارة فتارة، وفي يوم الجمعة تجلل الأبواب كلها بجلال الحرير"[١].

ووصف عدد من الرحالة **كسوة الحجرة الشريفة**، قال التامكروتي: "والكسوة المسدولة على الشباك هي اليوم في الغاية من الإتقان، بلون الخضرة والبياض، وبها من خيوط الذهب والفضة العجب فلا ترى كسوة تضاهيها، وهي انسدلت عليها إلى الأرض؛ خلافاً لقول العبدري: إلى قريب من القامة، ولعل ذلك كان في زمانه وتغير بعد دخوله". ثم نقل عن السمهودي أنها كان يؤتى بها من مصر في كل عشر سنين مرة، أوفي كل ست سنين، ثم قال: "قلت: وأما اليوم فقد حدثني الثقاة من المجاورين وغيرهم أنها يأتي بها الشامي، يبعث بها من تأمر بالقسطنطنية وتبقى في مدة إيالته حتى يموت أويعزل، ثم إذا ولي من بعده جددها، وهكذا فليست ككسوة الكعبة ومقام إبراهيم التي يؤتى بها كل سنة من مصر. ولست أدري متى انقطع الإتيان بها من مصر ولا سبب ذلك، ولعله لما استقرت المملكة وصاحبها السلطان العثماني باسطنبول غير ذلك، والله أعلم"[٢].

كما تحدث الرحالة عن اللوحات والنقوش التي وشيت بها المقصورة الشريفة، وذكر أوليا جلبي أن: "فوق المقصورة نقشت الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[٣] كما توجد لوحة معلقة مكتوب عليها: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٤] قال: "وناحية رأس النبي، وفوق القفص الموجود لوحة فضية مكتوبة بالخط الجلي: لا إله إلا الله محمد رسول الله..."[٥]. وذكر ابن مليح السراج أن مما كتب في سقف الروضة المشرفة بين الحجرة والمنبر الشريف هذه القصيدة؛ نقتصر على ذكر مطلعها:

لمهبط الوحي حقا ترحل النُّجب وعند هذا المرجى ينتهي الطلب[٦].

---

(١) انظر: "رحلات الحج" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٢)

(٢) انظر: الرحلات إلى المدينة المنورة ٧٥٣/٢.

(٣) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٤) سورة النساء: ٧٩.

(٥) انظر: الرحلات إلى المدينة المنورة ٤١٢/١.

(٦) السابق، ١٨٨/١.

وتعرض رحالة هذا العصر لذكر النفائس والمجوهرات التي كانت تهدى للمسجد النبوي والحجرة الشريفة، قال أوليا جلبي: "في هذا المكان الطاهر من المجوهرات، والشمعدانات الذهبية والقناديل المرصعة ما لا عين رأت، ولا خطر على عقل بشر، ولا يعرف حصرها أوقيمتها سوى الله سبحانه وتعالى". ثم قال: "وبين الكلة المسدولة، والمقصورة الخارجية ثلاث خطوات، وقد رصع هذا المكان بأثمن الأحجار، الكريمة، كالعقيق، والفيروز، والزبرجد، والكرستال، والبلور، والثريات، ولذلك لم يفرش هذا المكان بالسجاد، أوما شابه ذلك، أما الكرات الذهبية، والمجوهرات، والقناديل المعلقة داخل القبة من ذلك النوع الذي لا مثيل له، ولم يخطر على عقل بشر، ومن يراها يفقد وعيه، وإدراكه. لم يكن في القبة مكان خال، بل لقد علقوا هذه التحف النادرة، في سلاسل، متدلية، من زوايا القبة. ويمتلئ المكان بالشمعدانات الذهبية الخالصة التي تصل أطوالها قامة الرجل، أما الغطاء المسدول أمام الرسول الكريم، فقد ثبت فيه قطعتين من الماس، إحداهما سبعون قيراطاً، ويعلم الله أنني نظرت إليها ليلاً فإذا القبة قد أنيرت من أشعتها وضيائها. بل يردد البعض، أن بعض الدارسين يقرؤون على نورها"[1]. وفي كلامه من المبالغات ما لا يخفى.

وقدم المرادي رسماً تقريبياً للمقصورة الشريفة فقال: "قد رسم أخي وشقيقي الشريف العالم سيدي أحمد بن علي في كناسة، حين كان مجاوراً هنالك سنة، مثالاً للبيت صورته، غير أني لم أحسن وضع ذلك كما أحسنه، ولم أتقن تسطيره كما أتقنه، فمال بشكله إلى التربيع، وملت به إلى التطويل، وما تنبهت لذلك حتى فرغت من رسمه، فمن شاء نقلها فليجعلها متسعة إلى نحو حد الكتابة التي فوقها لتميل بذلك إلى التربيع"[2].

---

(١) "الرحلات الحجازية" المؤلف: أوليا جلبي درويش محمد ظللي؛ مرجع سابق؛ ص: ٧٢ فما بعدها.

(٢) الرحلات إلى المدينة المنورة ٦٣٤/٢.

المطلب الثاني: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر العثماني الأول في المسجد النبوي.

اعتنى رحالة هذا العصر برصد العديد من المظاهر الإيجابية والسلبية التي شاهدوها خلال زيارتهم للمسجد النبوي، ويعد أبو سالم العياشي أوسع من تحدث في هذا الجانب، نظراً لطول إقامته في المدينة المنورة، ووتتبعه الدقيق، واستقصائه في الكتابة عن كل ما جرى له أو شاهده.

وأبرز المظاهر الإيجابية التي رصدها رحالة هذا العصر هي:

١-**التعاون على البر**: فقد ذكر العياشي تنافس الأمراء مع غيرهم في خدمة المسجد النبوي الشريف، ومن الأمثلة التي ذكرها قال: "ولما تأخر ارتحال الأركاب في هذه السنة تأخر فرش الحرم الشريف إلى أول ربيع، وتنافس الناس في الخدمة في ذلك اليوم بنقل البسط وغيرها، وعمل في ذلك الأمراء العظام فمن دونهم، ... ولقد رأيت الأمير إبراهيم الذي كان أمير الحاج المصري – وهومن الأمراء الكبار – مشمراً عن ساقه، قد جمع عليه ثيابه، وقد كاد الغبار أن يواري بشرة وجهه وهم يخرجون صناديق الكتب من الحجرة الشريفة، ... ولقد جهدت أن أتشرف بشيء من تلك الخدمة، فلم أقدر إلا على بسط الفرش في محالها بعد وصولها من الأمراء الكبار"[(١)]. ومما ذكره أيضاً قال: "ولما كان في أواخر جمادى الثانية كثرت الأمطار بالمدينة وما حولها، وسالت أودية المدينة سيولاً متعددة، وبينما نحن ذات يوم بالمدينة بعدما صلي الظهر، أرخت السماء عزاقيلها، وأمطرت مطراً وابلاً سحاً كأنه طوفان، وفي أقل من ساعة صار صحن المسجد كله كالبركة العظيمة من ماء الميازيب وماء المطر، فضاقت عنه البلاليع المتخذة لسلوكه في صحن المسجد، وكان ببعضها بعض اختناق، فلم يرع الناس إلا اندفاق الماء إلى داخل المسجد، وأتى علي الزرابي المبثوثة والحصر، فبجدٍ واجتهاد تصايح الناسُ ممن كان بقرب المسجد، وجمعت البسط والزرابي بعدما ابتل أكثرها، ... فاجتمع الناس لإخراج الماء من المسجد بالأسطال[(٢)] والأواني الكبار، فجد في

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة، ٣٠٦/١.

(٢) الأسطال: جمع سطل: الدلو. انظر: تكملة المعاجم العربية ٧٢/٦.

ذلك من رغب في الجد ، ... وعمل في ذلك جماعة من أصحابنا المغاربة أعمالاً حسنة. وما فرغ الناس من إخراج الماء إلى قرب المغرب، فبات المسجد على حاله غير مفروش، وفي الغد بولغ في تنظيفه وغسله وكنسه ، ... وأمر شيخ الحرم باتخاذ أحجار منحوتة محكمة الإتقان قدر ذارع في الطول، مثبت أسافلها في أرض المسجد فيما بين كل أسطوانتين من الأساطين الموالية للصحن، يمنع ذلك من دخول الماء إلى المسجد ولواجتمع في الصحن إلا أن يكثر جداً ويرتفع فوق الأحجار، وذلك نادر أن يقع، ولو وقع لكان رجوعه إلى الخروج من باب الرحمة وباب جبريل أقرب من دخوله إلى المسجد"[1].

٢- **الإفطار الجماعي في رمضان**: يقول التامكروتي: "ويعد أهل المدينة للزائرين في رمضان موائد خفيفة للإفطار ثم يدعون بعد أداء الفريضة من يجدونه في المسجد من الحجاج الزائرين لتناول العشاء الدسم في بيوتهم"[2].

وأما المظاهر السلبية التي رصدها رحالة هذا العصر فكثيرة، نجملها في النقاط الآتية:

١-**كثرة اللغط وارتفاع الأصوات واختلاط النساء بالرجال**: ذكر العياشي عادات الحجيج المصري في المسجد النبوي فقال: "وكانوا تخوفوا إزعاج المصري إياهم عن الإقامة، كما هو شأنه في غالب السنين، وكان الحرم الشريف في أيام إقامتهم لا تكاد تسمع فيه صوت قارئ ولا مؤذن لكثرة اللغط والصخب، ورفع الأصوات، وازدحام الناس في المسجد ، لا ينقطع ذلك ليلاً ولا نهاراً؛ لأن أبواب الحرم الشريف لا تغلق ما داموا هناك، ويكثرون بالليل إيقاد الشموع في المسجد ، ويجتمع إليهم صبيان أهل المدينة يقرؤون لهم موالد وقصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وهم محدقون بهم، ويسمون ذلك مولد النبي صلى الله عليه وسلم يستعدون له من بلادهم بالشمع والحلواء، ويدفعون للصبيان أجرة على ذلك، ويقع على أرض الحرم من الشمع المذاب شيء كثير لأجل ذلك، ... فتجد منهم في المسجد بالليل جماعات

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة، ٣٢٢/١.

(٢) انظر: "رحلات الحج"؛ مرجع سابق؛ ص: (٢٥٢)

كثيرة على هذا النمط، فيكثر لذلك الصياح في المسجد، واللغط الذي لا ينبغي، لا سيما مع ما ينضاف إلى ذلك من ولاول النساء، وبكاء الأطفال، واختلاط النساء بالرجال"[١].

٢-**التسول داخل المسجد**: قال أوليا جلبي: "وحذار أن تظهر تصدقك، أو أن يراك أحد، وأنت تخرج النقود، من حافظتك... وإلا، فإن كل ما معك لن يكفي، بل ولسوف يمزقون ملابسك، وهم يتزاحمون حولك، وربما وصل بهم الأمر إلى إيذاء المتصدق، أو يصرخون، ويولولون، وهم في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٢].

٣-**الجهل**: ذكر العياشي أن من عادة أهل المدينة اجتماع الناس من الأمصار في أول شهر رجب لشهود ما يسمونه الرجبية، وزيارة سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، قال: "وقدم خلق كثير من الأعراب، وامتلأ المسجد وجوانبه، فما من يوم إلا ويزداد الخلق فيه كثرة، وأكثرهم عرب جفاة ليس لهم من دين ولا مذهب، جلهم لا يعرف صلاةً وصوماً، فتدخل جماعة منهم المسجد غاسلين أطرافهم يريدون الصلاة على زعمهم، فيقف أحدهم ملياً، ثم يسجد على قدر ما يرى إما ثمان سجدات أوعشر سجدات أو أكثر على حسب نشاطه ثم ينصرف، وغالبهم على هذا الوصف، ومنهم أفراد يدينون دين الحق، وسلامهم على النبي صلى الله عليه وسلم: حيا الله محمد، رافعين بها أصواتهم. فإذا كانت الليلة السابعة والعشرون تكامل حسن الناس، فمن لم يدخل المسجد من قريب من العصر قلما يجد موضعاً لصلاة المغرب والعشاء، فيغص المسجد بمن فيه، ويفتح الحرم طول الليل، ويبيت الناس في ذكر وقراءة وصلاة كل على حسب ما يسنح له إلى الصباح، فإذا أصبح الناس أخذ الأعراب في التوديع فيسمع لهم حنين كحنين الإبل في المسجد، وصياحٌ وصراخ، رافعين أصواتهم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ..."[٣] ومن لطائف ما ذكره قال: "أخبرني شيخنا الملا إبراهيم عن الشيخ القشاشي، أنه بينما هو ذات يوم عند المواجهة، إذ جاء أعرابي في

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة، ٢٢٣/١.

(٢) الرحلات إلى المدينة المنورة، ٤٢١/١.

(٣) الرحلات إلى المدينة المنورة، ٣٣٦/١.

شملته وبيده عصاه، حتى وقف أمام الوجه الشريف، فضرب بعصاه الأرض مرتين وهو يقول: يا محمد، يا محمد، لا تقل أنا ما جئتك ها أنا ذا، فذهب ولم يزد على ذلك"[١].

٤-الاقتتال ورفع الأصوات وشدة العدو لحجز موضع في الصف الأول: ومما رصده العياشي من من المظاهر السلبية أنهم كانوا "إذا فتحت أبواب المسجد فجراً دخلوا مزدحمين، وتسابقوا الصف الأول من الروضة، ... فمن سبق إلى موضع كان أحق به، فإذا أراد القيام لحاجة ... بسط نمرة له في محله، فلا يجلس فيه أحد ولو أبطأ، وكثيراً ما يعتدي في ذلك أقوام فيدخلون مع أول داخل من غير طهارة، لقصد السبق إلى الموضع وتحجيره، فإذا بسط فيه فروته أو منديله ذهب إذ ذاك إلى الطهارة وأسبابها، ... وربما عرض لأحدهم حاجة في منزله أوفي السوق فيترك النمرة في محله فلا يقربه أحد وإن أبطأ كثيراً، ... على أن في دخولهم مزدحمين واستباقهم إلى الروضة ربما سمع لأقدامهم دوي من شدة العدو، وهذا سوء أدب لا يخفى"[٢].

٥-تعدد المحاريب وتفرق المصلين على إمامين أو أكثر: وذلك من أسوأ المظاهرالسلبية المفرقة للأمة، وأول من نبه من الرحالة على ذلك ابن أبي محلي حين قال: "ولقد شاهدت بالحرم النبوي – شرفه الله – محرابين ... أما أحدهما: فمحرابه الشريف، وهوالذي بإزاء قبره الرفيع، والآخر أحدثوه عن يمينه ليصلي فيه الحنفي أوالشافعي، مناوبة دون المالكي والحنبلي، لقلة أتباع الإمام أحمد اليوم، وقلة أصحاب مالك..."[٣].

٦-إنكار العياشي على بعض تصرفات الأغوات: قال: "ولقد أنكرت منهم تأديب من لزمه الأدب من صغارهم في المسجد في بيت بإزاء دكتهم قريباً من الحجرة، فيسمع صياحه وصوت الضرب كل من بإزاء الحجرة، فكنت أرى أن لو جعلوا لذلك محلاً بعيداً من المسجد والحجرة الشريفة"[٤].

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) الرحلة العياشية مرجع سابق؛ ص٣١٢.

(٣) الإصليت الخريت، ص١٨٠.

(٤) "الرحلة العياشية، مرجع سابق؛ ص٣١٠.

المطلب الثالث: العادات والتقاليد التي رصدها رحالة العصر العثماني الأول.

رصد الرحالة عدداً من العادات والتقاليد التي كان يمارسها أهل المدينة المنورة في المسجد النبوي الشريف، من أبرزها:

١- كانوا إذا استهل شهر ربيع الأول "نظف الحرم الشريف، وفرش بفرشه المعهودة من الزرابي المبثوثة الحسان، وأخرجت الربائع التي فيها المصاحف العتيقة، والأجزاء الحسان من وقف الملوك والكبراء، وصففت في قبلة المسجد، وفتحت خزائن الكتب العلمية الموقوفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة، وشرع الأئمة في القراءة والتدريس". "فإذا كان بعد صلاة العصر من اليوم الحادي عشر أخذت القناديل الكبار والحسك العظام من الحجرة، ... وصفَّت في صحن المسجد، ووضعت فيه الشموع الغليظة الصافية اللون، ... وتبسط البسط الرفيعة من جوانب القناديل من كل جهة؛ لجلوس الأمراء وأرباب المراتب؛ ولجلوس المنشدين، وضربت خيمة قريبة من باب النساء، ووضعت فيها أنواع الأشربة الحلوة. فإذا امتلأ المسجد، وغص بأهله، وجلس كل واحد في موضعه، قام المنشدون فينشدون من غرر القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ما انتخبوه وأعدوه لذلك الموضع بألحان عجيبة وتراجيع متسقة، وبإزاهم جماعة يردون عليهم بأصوات حسنة، فيجيء السقاؤون بأنواع الأشربة الحلوة، فيسقون الأمراء، والمنشدين، ومن معهم من أتباعهم، ثم سائر الناس، ثم يؤتى بأنواع الرياحين والأزهار فتوضع بين أيديهم أضغاثاً، ثم تفرق وينثر ما بقى منها على عامة الناس، ولا يزالون كذلك حتى يمضي من الليل ما شاء الله النصف أوقريب منه فينصرفون"[١].

٢-**ومن عادتهم** "في إقامة الصلوات الخمس بالحرم الشريف: الصلاة في أول الوقت ما عدا الصبح للحنفي، فيؤخره إلى قرب الإسفار، فيصلون الظهر أول ما تزول الشمس، وما يقيل غالب الناس إلا بعد الصلاة، وكان ذلك يشق علينا قبل اعتياده، فتكاد صلاة الظهر تفوتنا في المسجد؛ لأنا لا نتأهب بها إلا بعد الأذان. وليس بين الأذان والصلاة قدر يسع التأهب".

(١) "الرحلة العياشية، ص٢٨٩.

"وأول من يصلي من الأئمة الشافعي، ثم الحنفي، إلا في صلاة المغرب، فيتقدم الحنفي لضيق وقته عنده كالمالكي، ولا يؤم بالمدينة من الأئمة سواهما من أرباب المذاهب إلا في الجمعة، فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، فيتناوب الإمامان الصلاة في المحراب النبوي، فإن صلى أحدهما فيه صلى الآخر في المحراب الآخر الذي على يمين المنبر الشريف، وأما المحراب العثماني الذي في الصف الأول فلا يصلى فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثر الناس"[١].

٣-**ومن عاداتهم** "في كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء، في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد، فيأتي جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة، أو قصيدتين بصوت رخيم وتطريب وتقسيم، والناس محدقون بهم"[٢]. "ومن عادتهم أيضاً يوم الجمعة أن يكنس المسجد النبوي كله، ويؤتى بأغطية من ديباج أسود مخَوص بالذهب فتعلق على أبواب المسجد، ويؤتي برايتين سوداوتين من ديباج مخوص أيضاً فيركزان عن يمين المنبر وشماله، وتكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجاً من ذلك النعت أيضاً، ويعلق أيضاً على أبواب الحجرة الشريفة"[٣].

٤- **ومن عاداتهم** "إدخال الجنازة إلى الحرم الشريف، فيصلى عليها بالمسجد، ثم يمر بها أمام الوجه الشريف، ويوقف بها وقيفة، ثم يذهبون بها إلى محلها من البقيع أوغيره، إلا جنائز الروافض كالنخاولة فإنها لا يدخل بها المسجد ولا يؤتى بها للمواجهة، بل يأتي بها أصحابها إلى خارج المسجد من ناحية الروضة ثم يرجعون"[٤].

٥- **ومن عاداتهم** "في الإملاكات أن يكون عقد النكاح بالمسجد الحرام، فيأتي أكابر المدينة من أرباب المراتب والمناصب والخطيب، فيجلسون صفين من المنبر إلى الحجرة الشريفة، صف مستقبل القبلة، وصف مسند ظهره إلى جدار القبلة، وبإزاء الخطيب

---

(١) المرجع السابق، ٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٧.

(٣) المرجع السابق، ص٢٨٨.

(٤)المرجع السابق، ص٢٩٥.

المتعاقدان، فيشرع في الخطبة فيثنى على الله بما هو أهله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ثم يذكر المتعاقدين، ويشير إليهما ويرضيان بذلك، ثم يؤتى بأطباق الرياحين، وتوضع بين الصفين وأطباق من اللوز والسكر؛ ويفرق ذلك على الحاضرين، ويقوم المنشد وينشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ثم يفترق المجلس، ويقوم الحاضرون إلى المتعاقدين ويهنئونهما"[1].

٦- **ومن** عادات أهل المدينة أيضاً "أن تأتي الأم بمولودها الجديد إلى الحرم النبوي في أحد أيام الخميس بعد أربعين يوماً من مولده، فيحمله الحبشي الذي يقوم بالخدمة في المكان المخصص للنساء إلى داخل المقصورة، فيقف قبالة وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم، ويدعو للطفل بأن يبارك الله في عمره، وأن يجعل أعماله صالحة خالصة لوجه الله"[2].

(١) الرحلات إلى المدينة ٥٢٨/٢.

(٢) الرحلات إلى المدينة ٥٢٨/٢.

المطلب الرابع : الحركة العلمية في المسجد النبوي كما رآها رحالة العصر العثماني الأول:

تباينت انطباعات الرحالة في هذا العصر عن الحركة العلميّة في المدينة المنورة ، كما تباينت في العصر السابق، ففي حين أسهب أبو سالم العياشي وأبو العباس الدرعي والرحالة الهندي المراد آبادي وغيرهم في تعداد العلماء الذين تم اللقاء بهم، والكتب التي تمت قراءتها، والإجازات التي حازوا عليها؛ جاء الرحالة التامكروتي ليشتكي من ضعف الحركة العلمية، ويقول: "والبلد الطيب اليوم كادت أن تعرى من متعاطي العلم سيما مذهب مالك وأحمد"[(١)]. وقد أيد كلامه العياشي حين قال في معرض حديثه عن الدروس التي ألقاها في فقه الإمام مالك: "فإن البلد شاغر من محققي العلوم سيما فقه مالك، فلم نر هناك من يحقق أدنى مسائله"[(٢)].

وكان المسجد النبوي الشريف هو المكان الذي ضم غالب اللقاءات العلمية التي سطرها هؤلاء الرحالة.

ويعد الرحّالة أبو سالم العياشي من أكثرهم اهتماماً بهذا الجانب، فلم يكد يترك شاردة ولا واردة إلا وقد فصّل فيها، فقد تحدث عن العلماء الذين لقيهم، والكتب التي قرأها، والكتب التي أقرأها، والإجازات التي حصل عليها، والإجازات التي أعطاها لغيره، غير مغفل الزمان والمكان الذي حصل فيه كل ذلك، بل والمقدار الذي قرأه من الكتاب.

ومما ذكره رحمه الله قال: "ألجأني أصحابنا المالكية بالمدينة المنورة أن أقرأ لهم «مختصر الشيخ خليل» في فقه مالك، فابتدأنا قراءته في مؤخر المسجد بالجانب الغربي منه، وكانت قراءتنا من بعد صلاة العصر إلى قرب المغرب، فقرأنا لهم قراءة لا بأس بها زعموا أنهم لم يروا مثلها منذ أزمان، ... وقرأنا فيه إلى فصل الأذان في أزيد من شهر"[(٣)].

ومن الكتب التي أقرأها أيضاً: الشمائل، ومقدمات الشيخ السنوسي، ونقاية السيوطي، قال: "كلفني بعض أصحابنا المحبين من أهل السودان قراءتها، وما كنت قرأتها قبل ولا أقرأتها،

---

(١) الرحلات إلى المدينة ٧٦٩/٢.

(٢) الرحلات إلى المدينة ٢٩١/٢.

(٣) الرحلات إلى المدينة ٢٩١/٢.

إلا أنها لما كانت مبادئ علوم قد قرأنا فيها ما تيسر، وحصلنا منها النصيب الذي قدر جسرنا على قراءتها، إلا فنَّين منها لم أقرأهما ولم أقرئهما، وهما فن التشريح والطب، فقد امتنعت من إقرائهما حين الوصول إليهما، فألح علي فيهما وقال: إني لم أقنع بما فهمت من كلام المصنف، فقلت: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[1].

قال: "وأقرأت أيضاً «القرطبية» في فقه مالك، ونحو ربع «الألفية»، وبعض «مختصر العصامي في الاستعارة»، كل ذلك في محل جلوسنا تحت الأسطوانة التي عن يسار السرير الذي يقوم عليه المؤذنون في الصف الذي يلي صحن المسجد، وكان عامة جلوسنا هناك"[2].

وأما عن لقائه بالعلماء فقال: "اجتمعت بغالب فقهاء المدينة المشرفة، وأخذت عمن هو أهل للأخذ منهم، وكتبت استدعاء يشمل على نثر ونظم، استجزتهم فيه لنفسي وولدي وجماعة من أصحابنا وأبناء مشايخي، وكان من جملة من كتب عليه بإسعاف الرغبة شيخنا الملا إبراهيم .... وقد سمعت عليه أيام إقامته بالمدينة المشرفة: "معجم الطبراني الصغير"، بلفظه بالروضة المنورة فيما بين القبر الشريف والمنبر، وسمعت من لفظه أيضاً: "الأربعين حديثاً عن أربعين شيخاً" لتقي الدين الفاسي، وسمعت من لفظه أيضاً: بعض "الشمائل"، وأجاز لي بسائر مروياته .....و قد أفردت لذلك رسالة سميتها: «تحفة الأخلاء بأسانيد المشايخ الأجلاء » أذكرها بتمامها هناك، إن شاء الله ..."[3].

وممن لقيهم من العلماء أيضاً: الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الديبع اليمني الزبيدي، قال: "هو من قدماء مشايخي أجاز لي كما هو مذكور في كتابنا «اقتفاء الأثر»، اجتمعت به في الحرم الشريف، فسألته أن أقرأ عليه ختمة القرآن العظيم بقراءة الإمام عبد الله بن كثير المكي، فأذن في ذلك، وجعل لي وقتاً معلوماً بين من يقرأ عليه..."[4].

وممن لقيهم من العلماء أيضاً: الشيخ الفقيه ياسين بن محمد بن غرس الدين الخليلي، أحد خطباء المسجد وأئمته، قال: "وهو أمثل المدرسين به ...، فهو أقرب من رأيت من أرباب

---

(١) سورة الإسراء:٦٣.

(٢) الرحلات إلى المدينة ٢/٢٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢٩٧.

(٤) المرجع السابق، ص٣٤٤.

الوظائف للتمسك بالهداية، وأبعدهم عن أسباب الغواية. قرأت عليه بالحرم النبوي، وكان معظم تدريسه في «صحيح البخاري» وفي "إحياء علوم الدين» ... وأجازني إجازة عامة..."[١]

أما الرحالة أوليا جلبي فلم يكن من طلبة العلم، فاقتصر على القول: "وتقام بهذا الجامع النبوي الشريف حلقات لأرباب العلم والعرفان"[٢].

أما العلامة محمد ابن الطيب الفاسي: فقد ذكر عدداً ممن التقى بهم من العلماء فقال: "ورد علينا صاحبنا ومحبنا الفقيه العلامة: أبو عبدالله محمد بن عبدالله الفيلالي، وجاء بعده ابنه الأنجب سيدي محمد.....ولقينا في المسجد أيضاً- صاحب والدنا الفقيه الناسك الشيخ سليمان الحصني، وجماعة من أصحابنا المغاربة"[٣].

كما تتلمذ على يديه كبار العلماء، منهم الزبيدي صاحب القاموس الذي ذكر أنه مدين فيه بالفضل إلى شيخه ابن الطيب.

وأما الرحالة السويدي البغدادي: فقد التقى بعدد من العلماء، فاستجازهم وأجازهم، فقد أجاز سليمان بن عبدالهادي العجلوني، وتبادل الإجازة مع عمه الشيخ إسماعيل العجلوني[٤].

وأما الرحالة أبو العباس أحمد بن محمد الدرعي فقد التقى بجل علماء المدينة منهم: "الشيخ أحمد الأنصاري، وصنوه الشيخ عبدالرحيم، والشيخ عبدالكريم العباسي، وابنه، والشيخ طاهر ابن شيخنا الشيخ إبراهيم الكردي". "والخطيب بمسجده صلى الله عليه وسلم الشيخ إبراهيم البري" قال: "والتقيت بالسيد الأمجد الشيخ: عبدالكريم الخليفي العباسي، الخطيب والإمام بمسجد سيد الأنام، صلى الله عليه وسلم ... والشيخ أحمد زادي ابن عم قاضي صالح ... والشيخ أحمد الفلاني ... وشيخنا العلامة الدراكة الفهامة، الملا إبراهيم بن حسن الكوراني ... اجتمعنا به يوم خروجنا من المدينة بمنزله مع جماعة من أصحابه من أهل

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧٢.

(٢) الرحلات الحجازية؛ ص: ١١٨.

(٣) "رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة، ص١٠٧.

(٤) انظر تفاصيل ذلك في: رحلات الحج؛ مرجع سابق ١٤٢/٤.

الشام وغيرهم، فإذا هو نادرة الأعصار ... فأجازنا في جميع مروياته ومقروءاته ومسموعاته ... وطلب منا الإجازة كذلك فأجزناه" قال: "وممن التقينا به بالمدينة خطيب الحرم الشيخ إسماعيل قرأت عليه حديث: «إنما الأعمال بالنيات» فأجازني"[١].

وأما الرحالة الحضيكي فقد ذكر عدداً من علماء المدينة الذين أدركهم قال: "وفيها من العلماء يومئذ: سيدي محمد الدقاق السلاوي، ... وسيدي أبو عبدالله ابن الطيب الفاسي، ... وسيدي محمد بن السيد عبدالعزيز الرسموكي، ... وسيدي محمد حياة، وغيرهم"[٢].

وأثار الحضيكي مسألة السلام عليه – صلى الله عليه وسلم- هل يسلم المرء عليه كلما دخل المسجد أوخرج ؟ وذكر كلام العلماء في ذلك، كما تعرض لتاريخ بناء المقصورة حول الحجرة، وإنكار بعض العلماء على ذلك، لأنه دخل فيه قطعة من الروضة مما يلي بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣].

أما الرحالة محمد بن ناصر الدرعي التامكروتي فبعد أن اشتكى من ضعف الحركة العلمية في زمنه كما قدمنا؛ قال: "وأمثل من رأينا بها المسن البركة الشيخ محمد بن عبد الله المالكي، ذهبت إلى باب داره، فزرته وأخذت عنه وأجازني، ... ومنهم المسن البركة الشيخ علي بن محمد بن علي الشرواني، جالسته مرارا قرب المحراب النبوي القديم. ومنهم سيدي علي بركة الدقاق المغربي من رباط الفتح بسلا، اجتمعت به في المسجد النبوي مرارا ولم أستجزه... ومنهم الشيخ محمد بن خالد بن أبي بكر الجعفري مفتي المالكية وخطيبهم بمكة ثم انتقل إلى المدينة مجاوراً... وممن اجتمعت به من المجاورين السيد عبد الرشيد الشنقيطي المغربي، ... ومنهم مولانا إبراهيم المغربي الرباطي، ... ومنهم الأستاذ النجيب سيدي محمد المهدي المغربي الحمري، ومن سكان طيبة الشيخ عبد الكريم بن محمد السمان"[٤].

---

(١) كتب الرحلات في المغرب الأقصى، مرجع سابق؛ ص٨٠ .

(٢) الرحلات إلى المدينة ٦٨٠/٢.

(٣) الرحلات إلى المدينة ٦٦٢/٢.

(٤) رحلات الحج؛ مرجع سابق؛ ص٢٥٢.

وأما الرحالة العثماني إبراهيم بن كاظم حنيف فقال: "اجتمعنا في المدينة بعلماء في فن الحديث والتفسير، وبمن لهمُ اليد الطولى في سائر الفنون الفقيه المشهور عبد الجليل أفندي، والسيد محمد سعيد أفندي، ابن الخادمي، وطاهر أفندي، ومن أصحاب القلوب: رضوان أفندي، وأمثالهم من الأعزة الكرام"[1].

وفصل الرحالة الهندي المرادآبادي أنواع الدروس التي تلقى في المسجد، وأن لكل نوع جمهوره الخاص؛ فقال: "في المسجد النبوي الشريف ثلاثة أنواع من المجالس: الأول: مجالس الوعظ ويعقدها بعض الفضلاء. الثاني: مجالس الدرس والتدريس ويعقدها بعض العلماء، فيدرسون فيها كتب التفسير والحديث، وكتب الفقه والعلوم المساعدة. الثالث: مجالس التدريس على طريقة التذكير، ويعقدها صنف آخر من العلماء يقرئون فيها كتب الحديث، وكتب التصوف، أو كتب عن سيرة بعض المشايخ، وتكون القراءة بصوت جميل على طريقة الوعظ والتذكير، بينما يجلس الحاضرون حول العالم ينصتون إليه، ومعظم من يفد على هذه المجالس من التجار وأصحاب الحرف"[2]. كما تحدث عن طائفة من علماء المدينة المنورة في زمنه، مشيراً إلى موعد درس كل واحد منهم، وموضع مجلسه، واختصاصه، والكتاب الذي يقرئه قال: "الشيخ عثمان الحنفي المصري: دمشقي الأصل، مصري المولد والمنشأ، ... يقوم بتدريس الجامعين الصحيحين للبخاري ومسلم على ضوء الشموع بعد صلاة الفجر مباشرة خلف الإمام الشافعي، كما يقوم أيضاً بتدريس شرح الإمام ابن حجر على الأربعين حديثاً للنووي رحمهما الله، ... وقد حضرت كثيرا من دروسه، وقد تلقيت منه – تيمناً – إجازة في رواية الصحاح، بعد أن قرأت عليه حديثاً من كل كتاب...". وبمثل هذه الترجمة الشاملة يمضي في ذكر بقية السادة العلماء الذين التقى بهم، وهم: الشيخ صالح المالكي المغربي، والشيخ إلياس الشافعي، والشيخ أحمد الحنبلي، والشيخ موسى، وكان يدريس كتاب «مشارق الأنوار» لجماعة من الأتراك، ويشرحه لهم باللغة التركية، والسيدأحمد جمل الليل، والشيخ محمد عابد السندي، والسيد زين العابدين حفيد شقيق جعفر البرزنجي،

(١) الرحلات إلى المدينة ٨٢٣/٢.

(٢) الرحلات إلى المدينة ٨٠٤/٢.

والسيد علي شقيق السيد جعفر، وأبوالسعود الحنفي الشوراني". قال: "كما يوجد علماء آخرون بالمدينة المنورة، وإن من ذكرت من العلماء قبلاً هم أولئك الذين تعرفت عليهم والتقيت بهم، وجلست إليهم، وصاحبتهم، أما من سأذكرهم الآن فلم أتعرف عليهم، وهم يقومون بالتعليم والتدريس وإفادة الناس والإفادة" ومن هؤلاء: السيد محمد مقبل: من السادة الباعلويين، والسيد إبراهيم الأمير، واحد من أشقاء إمام اليمن، والسيد مصطفى الحلبي القادري، وترجم لكل واحد منهم[1].

وذكر أن سلطان المغرب كان على دراية بالحديث الشريف؛ وألف فيه كتابين، وبعث ببعض نسخ الكتابين إلى الحرمين، وقرر رواتب لمن يقوم على تدريسهما.[2]

(١) الرحلات إلى المدينة ٨٠٣/٢.

(٢) السابق نفسه.

المطلب الخامس: حديث رحالة العصر العثماني الأول عن سدنة المسجد النبوي الشريف

تقدم معنا عند الحديث على العصر المملوكي أن خدّام المسجد الشريف وسدنته من الأحابيش وسواهم، وصار يطلق عليهم في هذا العصر لقب "الأغوات"[(١)]، قال أبوسالم العياشي: "ومن عادتهم أن لا يتولى خدمة الحجرة المشرفة والمسجد إلا عبيد أغوات موقوفون على ذلك لا يشاركهم غيرهم، وشيخ الحرم هو كبيرهم". قال: "واختاروا وقف الخصي دون غيره؛ لكونه أطهر وأنزه وأكثر فراغاً من الاشتغال؛ إذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم، وهو أبعد من دنس الجنابة ومباشرة النساء"[(٢)].

ويذكر العياشي أن عدتهم في زمانه قريب من الثمانين، وأنهم ينقسمون إلى صنفين؛ الصنف الأول: الأربعون الكبار المقدمون الذين يأتي رزقهم ومؤنتهم من بيت المال، أما الصنف الثاني: فيدعون بالبطالين، يرزقون من الأوقاف التي لهم بالمدينة، أو مما يأتيهم من الهدايا والصدقات من أقطار الأرض، وهؤلاء إنما يستعملون في الأشغال التي هي خارج الحجرة والمسجد النبوي من الأعمال الممتهنة[(٣)].

ثم بين لنا **مبادئ التعامل بينهم** فقال: "ولا يجلسون مع الأكابر في الدكة، إنما يجلسون خارجها، ولهم ضبط وسياسة كسياسة الملوك، فلكل واحد منهم رتبة معلومة، وشغل معلوم، فإذا مر بالأصاغر أحد الأكابر قاموا كلهم، وكذلك الأكابر فيما بينهم". قال: "وأحكامهم فيما بينهم منضبطة غاية الانضباط، ولا يحكم فيهم سلطان ولا غيره، ولا يولى عليهم ولا يعزل منهم إلا بأمر شيخهم، ولا يرث معهم بيت المال إن مات أحدهم إنما يتوارثون بينهم، ومن وجبت عليه عقوبة أوأدب منهم أدبوه من غير أن تكون لأحد عليهم ولاية، كل ذلك تعظيماً لجانب النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون لأحد ولاية على عبيده".

---

(١) وهي في الأصل كلمة فارسية دخلت إلى اللغة التركية، وتعني السيد، وكانوا يطلقونها على فئة من الخدم السلطاني في قصور الحريم، وهم من الرجال المخصيين منذ الصغر. انظر: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية.ص: ١٥.

(٢) الرحلات إلى المدينة المنورة ٥٣٥/٢.

(٣) المرجع السابق نفسه.

"ولكبيرهم كلمة نافذة في المدينة، تنفذ أحكامه وتمضي تصرفاته في القوي والضعيف، ويطأ عقبه الكبراء والأشراف"[١].

وأهم الأعمال المنوطة بشيخ الحرم: نيابته عن السلطان في خدمة المسجد الشريف، والمقصورة الشريفة، بكنس المقصورة الشريفة، وإيقاد قناديلها، لذلك جرت العادة أنه إذا جلس على العرش سلطان جديد، بعث بالهدايا والعطايا إليه. كما أن من مهماته السنوية تنظيف نفائس الحجرة في العام مرة.[٢]

ويلي شيخ الحرم في الرتبة: النقيب ثم المستشار، وهوالذي يتولى قبض الصدقات، وما يهدى لهم، أو للحجرة، وبيده مفاتيح الحجرة، وحواصل الزيت، والشمع. وإذا مات أحد من الأربعين أخذ شيخ البطالين مكانه[٣].

ويصف العياشي ما شاهده عن الأغوات أثناء مجاورته في المدينة فيقول: "وكل الأغوات أهل خير وبركة، قد اختارهم الله لخدمة أشرف البقاع، وشرفهم بالنسبة إلى أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم... ولقد شاهدت منهم أناساً على قدم صدق في العبادة، منهم الأغا عبد النبي، وهو شيخ البطالين إذ ذاك، والأغا عنبر منهم أيضاً، ولقد اعتكفت ليلة في المسجد، فلم يبت فيه أحدى غيري سوى الأغوات، فاجتهدت أن أساويه في القيام والصلاة فما قدرت، والفضل بيد الله". ثم قال: "والأغوات كلهم يبيتون في المسجد، ما عدا شيخ الحرم والنقيب، وأما الآخرون فلا يبيت واحد منهم بداره إلا لعذر بين من مرض أونحوه، وغالب نوم الصغار منهم في مؤخر المسجد؛ ومن وراء الناحية الشامية ميضأة كبيرة، فيها بئر كبيرة وأخلية، فتح لها باب إلى مؤخر المسجد، ولا تفتح إلا ليلاً بعد غلق الأبواب، وتسرج فيها المصابيح لوضوء الأغوات، وإزالة حقنة من احتاج إلى ذلك ليلاً"[٤].

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) الرحلات الحجازية، ص٩٧.

(٣) الرحلات إلى المدينة المنورة ٥٣٥/٢.

(٤) رحلة العياشي٣٠٥/١.

"**وعادتهم كل ليلة** إذا فرغ الناس من صلاة العشاء ورواتبها؛ قاموا بأيديهم الفوانيس الكبار مشعلة، ليخرجوا الناس من المسجد، فيأتون إلى المواجهة والصف الأول، فيقف بعضهم أول الصف ووسطه وآخره، فيخرجون كل من فيه، فإذا لم يبق أحد في ذلك الصف، تكلموا بكلمة ذكر، رافعين أصواتهم بها، فينتقلون إلى الصف الذي يليه، ثم كذلك حتى لا يبقى في المسجد أحد إلا هم، فيغلقون الأبواب، ويطفئون المصابيح كلها إلا التي في مواجهة الوجه الشريف، والتي في داخل الحجرة، فيخرجون من المسجد إلى الصحن وإلى الأروقة التي جانبه، فيخرجون فرشهم من الحواصل وينامون هناك". "فإذا غلقت الأبواب هدأت الأصوات منهم وخشعوا، فلا تكاد تسمع من أحد منهم كلمة، فمن احتاج منهم إلى أحد كلمه كأخي السرار، ولقد رأيتهم يبالغون في خفض أصواتهم بالليل، حتى بالسعال والعطاس، وتنزل عليهم السكينة، وتلحقهم هيبة المكان، وليس ذلك منهم مجرد استعمال بل لما يخالط قلوبهم من هيبة المكان". "فإذا كان بعد الثلث الآخر من الليل، جاء رئيس المؤذنين، ففتحوا له، وصعد إلى المئذنة الرئيسية، وأذن وشرع في الدعاء والذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فيقوم كل من في المسجد من الأغوات فيتوضؤون، ثم يصبحون كل ما في المسجد من المصابيح، فإذا فرغوا من الإصباح وقرب الصباح فتحوا أبواب الحرم، ولا يأتي وقت فتحها حتى تجتمع بأبواب المسجد جماعات كثيرة من المجتهدين ينتظرون الفتح"[1].

والأغوات كما يقول العياشي: "لا يغفلون طرفة عين عن حراسة الحرم الشريف، وتأديب من أساء الأدب فيه بلغط ورفع صوت أونوم ولو في قائلة إلا في مؤخر المسجد، ومن وجدوه مضطجعاً من دون نوم للاستراحة، فإن مد رجليه إلى ناحية الحجرة زجروه، وإن استقبل القبلة بوجهه أوالحجرة من غير أن يكون مستدبراً لها تركوه"[2]. "ولا يغفلون عن حضور المسجد في ساعة من ليل أو نهار، فإن خرجت طائفة جلست طائفة، ولهم ديار وخدم وأتباع وضياع وخيل

(١)رحلة العياشي١/٣٠٧.

(٢) المرجع السابق.

وسعة دنيا، ولا يشغلهم ذلك عما هم بصدده من خدمة المسجد، بل لبعضهم أزواج وسراري اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع"[1].

وقد بالغ الرحالة أوليا جلبي ـ كعاته ـ فأوصل عدد الأغوات إلى سبع مئة خادم، يعملون في الحرم، ومعهم ثلاثمئة مفتاح من الذهب، وعدا هؤلاء ألف خادم آخر للجامع[2]. ولا أرى صحة لما ذكره عن هذه الأرقام، ولا عن مفاتيح الذهب، إلا إن أراد بالخدم عموم الموظفين في المسجد النبوي، من الأئمة والخطباء، والمؤذنين، والكناسين وغيرهم. والله أعلم

□

(١) المرجع السابق.

(٢) "الرحلات الحجازية" المؤلف: أوليا جلبي درويش محمد ظلي؛ مرجع سابق ؛ ص: ١١٨. ولأوليا جلبي أخطاء كثيرة، ومبالغات كبيرة، وكثيراً ما يعتمد على الروايات الشعبية، وقد نوهت على بعضها، ومن أخطائه: ما زعمه من أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقانصوه الغوري المملوكي والمأمون بن الرشيد كانوا ممن ساهم في بناء المسجد، زعمه أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بغرس نخلة بيديه الكريمين في صحن المسجد، وغير ذلك كثير.

المبحث الرابع:

المسجد النبوي الشريف في العهد العثماني الثاني (١٢٥٦ـ ١٣٣٧هـ)

تمهيد: قبل الشـــروع في الكلام عن العهد العثماني الثاني لابد وأن ننبه إلى أننا لم نعثر فيما وقع بين أيدينا من المصادر والمراجع ومحركات البحث على أية رحلة مخطوطة أو منشورة في العهدين: السعودي الأول ١٢٢٠-١٢٢٦هـ، وعهد محمد علي باشا ١٢٢٦-١٢٥٦هـ إلا لرحالة مســـتشـــرقين ليس غرض هذا البحث التعرض لدراســـة رحلاتهم، لذلك انتقل بنا الحديث مباشرة من العهد العثماني الأول إلى العهد العثماني الثاني.

كما أحب التنويه أيضـــاً إلى أننا وجدنا الرحالة طيلة العهود الســـابقة تســـتعمل مقاييس تقليدية في توصيفهم للشـكل الهندسـي للمسـجد النبوي ومعالمه؛ وقد رأينا كيف ذرع بعضـهم المسـاحات بالخطوة والشبر والقامة؛ وكيف آثر آخرون منهم الذراع؛ وتكسير بعض المغاربة له من مراجعهم[1]، وهكذا عمل كل حسـب عرف أهل بلاده وزمانه، أما في النصـف الثانى من هذا العهد فسنشهد فيه اعتماد بعض الرحالة في قياساتهم لأبعاده على أساليب علمية جديدة، فقد اعتمد اللواء محمد صـادق باشـا واللواء إبراهيم رفعت باشـا على المتر والسـنتمتر، وعلى الصـور الفوتوغرافية، والصـور الطبوغرافية، والخرائط، واسـتخدم محمد لبيب البتنوني المتر الفرنســي وتدرجاته كوحدة قياس بدلاً من الوحدات القياســية القديمة، وظهرت المصــاحف والكتب المطبوعة، إلى غير ذلك من الأمور التي سوف نلاحظها في ثنايا البحث.

وعلى الرغم من قرب هذا العصـــر إلينا، وظهور وســـائل جديدة في حفظ التراث العلمي وطباعته وأرشـــفته، ووســـائل أخرى تســـهل الانتقال والحركة؛ فلم نســـجل زيادة في عدد الرحلات عما كانت عليه في العصـــر الســـابق، ولعل ذلك يعود إلى الاضـــطرابات الســـياســـية والعســـكرية التي كان يعج بها العالم الإســـلام آنذاك، وقد وقفت على ســـبع عشـــرة رحلة، سوف أقدم موجزاً يعرف بها وبأصحابها، وفق تسلسلها الزمني:

---

(١) يبدو أن (المرجع) في عرف أهل المغرب حينذاك وحدة قياسية مجهولة اليوم؛ ولعلها كانت تستعمل على نطاق ضيق في بلد المغرب الأقصى

الرحلة الأولى: "الرحلات الحجازية "[1] للرحالة المصري اللواء: محمد صادق باشا (١٢٣٨-١٣٢٠هـ) [2] حج أربع مرات، مكث في حجته الأولى في المدينة خمسة أيام، أتيح له فيها أن يحدد معالمها، ومساحتها بالأمتار، وبدقة لم تعرف من قبل، كما أتيح له أن يذرع الحجرة النبوية الشريفة، و يحدد قياساتها، كما قام بتصوير المسجد النبوي الشريف من الداخل وعن بعد؛ بواسطة آلة التصوير (الكاميرا) التي لم يكن مضى على اختراعها سوى عشرين عاماً، وتعد صوره من أوائل الصور التي أخذت للمسجد النبوي.

الرحلة الثانية: "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"[3] تأليف: محمد بن مصطفى بيرم (١٢٥٦ــ ١٣٠٧ هـ)[4]، زار المدينة المنورة بعد موسم حج سنة ١٢٩٦هـ ؛ مع الركب الشامي، تحدث بإيجاز عن المسجد النبوي الشريف والحجرة الشريفة.

الرحلة الثالثة: "من يوميات مكة" تأليف: كريمة فرهاد ميرزا (بعد ١٢٩٨هـ) [5]؛ زارت المدينة المنورة بعد موسم حج سنة ١٢٩٨هـ؛ وأمضت فيها تسعة أيام، دونت فيها بعض المشاهدات التي لفتت انتباهها، كإنارة الحرم والأذان، وقد كتبت رحلتها بأسلوب اليوميات .

الرحلة الرابعة: "الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينة"[6]، للرحالة السوداني عبد المحمود بن الشيخ نور الدائم الطيب[7] (١٢٦١-١٣٣٣هـ) ،حج سنة ١٣٠٤هـ، زار بعدها المدينة و مكث فيها خمسة عشر يوماً، التقى فيها بعدد من علماء المدينة و وجهائها..

---

(١) طبعت بتحرير: محمد همام فكري؛ ط/١ ؛ دار بدر للنشر والتوزيع؛ بيروت: ١٩٩٩. انظر: "رحلات الحج ١/ ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) كان عضو الجمعية المصرية الجغرافية، أوفد إلى فرنسا، ودرس فيها الهندسة العسكرية، وعاد إلى مصر فدرس في المدارس الحربية، حج أربع مرات كلف في الأولى بمرافقة الوالي محمد سعيد باشا في رحلته إلى الحجاز سنة ١٢٧٧هـ؛ وكان في الثلاث الأخرى أميناً للصرة (المسؤول المالي)،وكتب عن حجته الأخيرة سنة ١٢٩٧هـ كتاباً باسم "مشعل المحمل"، وصف فيه الاحتفالات بإدخال كسوة المحمل إلى الحجرة الشريفة. انظر: "رحلات الحج"؛ ١/٣١٤-٣١٥.

(٣) طبعت بدار الكتب العلمية؛ بيروت: ١٤١٧هـ.

(٤) فقيه تونسي وقاض وإعلامي، هاجر إلى أوربا إبان الاحتلال الفرنسي لبلاده، ومنها إلى القسطنطينية ومصر، عمل فيها في الإعلام، و أصدر جريدة " الأعلام " اليومية، له مؤلفات في الرحلات والفقه. انظر: "رحلات الحج"؛ ١/٣١٤-٣١٥.

(٥): كريمة فرهاد ميرزا: أميرة فارسية ، زوجة أمير العسكر، وابنة فرهاد ميرزا ولي العهد الفارسي.

(٦) طبعت الرحلة بتحقيق: المدني محمد توم؛ الناشر: المجلس القومي للذكر و الذاكرين؛ الخرطوم: ٢٠٠٧م. انظر: "رحلات الحج ٤/٢٧٥.

(٧) رحالة مغربي، فقيه ولغوي وشاعر، كان أحد شيوخ الطريقة السمانية في السودان، له أتباع كثيرون، ترك عددا من المصنفات والمنظومات في الفقه والعقيدة والتصوف والأدب. السابق نفسه.

الرحلة الخامسة: "أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد"[1] تأليف: علي بن أحمد الإلفي السوسي الدرقاوي[2] (١٣٢٨ـ١٢٦٨هـ) حج سنة ١٣٠٥هـ، وزار المدينة بعد الموسم، ومكث فيها أسبوعين، وصف فيها مشاعره وهو على أبوابها، ثم المعالم التي زارها، وهي الرحلة الوحيدة التي نظمت شعراً.

الرحلة السادسة: "الهارب إلى الله"[3]وليم ريتشارد وليا مسون، (١٢٨٨ـــ ١٣٧٧هـ) [4] حج مع القافلة العراقية، وزار المدينة المنورة، وكتب في مذكراته وصفاً عاماً لها وللمسجد النبوي، وسجل انطباعاته عنها.

الرحلة السابعة: "رحلة حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام"[5] تأليف: أبو عبدالله محمد يحيى محمد المختار الولاتي (١٢٥٩ـــ١٣٣٠هـ) [6] زارالمدينة المنورة في ١٣ محرم بعد موسم حج سنة ١٣١٢هـــ، ومكث فيها أربعة أشهر، التقى فيها بعدد من علمائها، ودرس فيها، وتحدث عن بعض معالمها

الرحلة الثامنة: "الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية"[7] تأليف: الحسن بن محمد الغسال الطنجي[8] (حوالي ١٢٧٧ـــ ١٣٥٨هـ)، زار المدينة المنورة خلال رحلة الحج عام

---

(١) طبعت الرحلة بتهذيب: ابنه محمد المختار. الناشر: محمد المختار، المغرب.

(٢) واعظ متصوف وشاعر، أنشأ زاوية في مدينته، وتفرغ للوعظ والتدريس، ونظم الشعر والتأليف، حج سنة ١٣٠٥هـ، ونظم رحلة حجه في نحو ألفي بيت، وقد أعاد النظر في رحلته ابنه محمد المختار بعد وفاة أبيه، وأصدرها بالعنوان المذكور أعلاه. الرحلات إلى المدينة ١٢٠٩/٣.

(٣) "الهارب إلى الله" هي مذكرات وليم ريتشارد وليامسون؛ كتبها: ستانتون هوب؛ ترجمها: رضوان مولويق؛ الدار المتحدة للنشر؛ بيروت: د.ت، انظر: "المدينة المنورة في أعين رحالة غربي" ترجمة: عدنان عبد البديع اليافي؛ ص: ٢٢٠-٢٢٣.

(٤) وليم ريتشارد وليا مسون: بحار وباحث جغرافي، ولد في إنكلترا، وهرب من والده وهو في الخامسة عشرة من عمره، فعمل في البحار في سفن تجارية، طاف بها على بلدان كثيرة، نزل بعدها في عدن، وأتيحت له فرصة القراءة عن الإسلام، فأعلن إسلامه عند سلطان لحج الذي سماه: عبدالله فاضل. الرحلات إلى المدينة ١٣٤٢/٣.

(٥) طبعت الرحلة بتحقيق: د. محمد الحجي؛ الناشر: دار الغرب الإسلامي، بدون: د.ت. انظر: "رحلات الحج ١٦/٢.

(٦) رحالة موريتاني، أصولي ومحدث وفقيه وشاعر، ومن المتصدرين للفتيا في بلده على المذهب المالكي، لقب بعالم الصحراء، له عدة مؤلفات ومنظومات في مذهبه، رحل إلى الشرق رحلة طويلة استغرقت ثلاث سنوات ليلتقي خلالها بالعلماء. الرحلات إلى المدينة ١٣٢٤/٣.

(٧) طبعت الرحلة بتحقيق: محمد فهيم بيومي؛ الناشر: زهراء الشرق، القاهرة ٢٠٠٩م، انظر: عبدالهادي التازي ص: (٦٠١).

(٨) كاتب من مدينة طنجة، له بحوث في الفقه والتراجم والرحلات، عمل في سفارة المغرب بلندن في عهد المولى عبد العزيز، حج سنة ١٣١٥هـ وتوفي في مراكش. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٣٩٧/٣.

١٣١٥هـ، ومكث فيها خمسة أيام، تحدث خلالها عن المسجد النبوي والمعالم الرئيسية فيها بإيجاز، وذكر بعض الحكايات التي تعتمد على الخرافة.

الرحلة التاسعة: "مرآة الحرمين"[١] للرحالة اللواء: إبراهيم رفعت باشا بن سويفي بن عبدالجواد بن مصطفى المليجي[٢] (١٢٧٣ ـ ١٣٥٣هـ) زار المدينة المنورة مرات عديدة، وكتب عنها في كل رحلة، وتعتبر كتاباته من أشمل ما كتب عن المدينة.

الرحلة العاشرة: "اللؤلؤة الفاشية في الرحلة الحجازية "[٣] لعبدالسلام بن محمد بن المعطي السرغيني الحسني[٤] (١٢٩٠ـ ١٣٢٧هـ) زار المدينة المنورة في ٩/محرم ١٣٢٢هـ، ومكث فيها أسبوعين، التقى فيها بعدد من علماء المدينة.

الرحلة الحادية عشرة: "رحلات السيد محسن الأمين"[٥] للرحالة محسن بن عبد الكريم الأمين بن علي العاملي[٦] (١٢٨٤ـ ١٣٧٢هـ) حج المؤلف سنة ١٣٢١هـ ؛ ثم زار المدينة، وأمضى فيها ستة أيام، دخل خلالها إلى المقصورة الشريفة.

الرحلة الثانية عشرة: "الرحلة الحجازية لولي النعم عباس حلمي باشا"[٧] تأليف: محمد لبيب البتنوني[٨] (١٣٥٧ـ ١٩٣٨م) حج عام ١٣٢٧هـ، وزار المدينة المنورة، ومكث فيها ستة

---

(١) نشرت الرحلة: دار الكتب المصرية ؛ القاهرة ١٣٤٤هـ ١٩٢٠م. انظر: "المدينة المنورة في آثار المؤلفين" ص ٢٣٠.

(٢) كلف بعد تقاعده قائداً لفرقة حماية محمل الحج، ثم أميراً للمحمل في مواسم حج ١٣٢٠هـ و١٣٢١هـ و ١٣٢٦هـ، كتب مذكراته على شكل يوميات، ضبط فيها تحركات المحمل بالساعة والدقيقة، في دقة متناهية، موثقاً الأمور الهامة بالصور الفتوغرافية والرسومات البيانية، والجداول والخرائط الجغرافية. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٤٩٧/٣.

(٣) طبعت بتحقيق: نور الهدى بنت عبد الرحمن الكتاني، الناشر: دار ابن حزم، ٢٠١٠م. الرحلات إلى المدينة ١٤٢٩/٣.

(٤) من أهل فاس بالمغرب، صاحب التصانيف والشعر، حج مع شيخه محمد بن عبدالكبير الكتاني، سنة ١٣٢١هـ، تجرأ على سلطان محلته عبدالحفيظ، والسلطان الذي سبقه بوضعه شروطاً للبيعة، منها: تقييد السلطان بالشورى، فنقم عليه و سجنه، فمات في السجن.

(٥) الناشر: مكتبة الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠١م، انظر: الرحلات إلى المدينة ١٤٢٥/٣.

(٦) أحد أئمة المذهب الشيعي الاثني عشري، ولد في قرية شقراء بجبل لبنان، ثم استقر في دمشق يدرس المذهب لأبناء طائفته، ترك مصنفات في الفقه الشيعي والدفاع عنه، وتراجم لأعيان الشيعة. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٤٢٥/٣.

(٧) قام المؤلف بنشر الرحلة، ط/٢ القاهرة ١٣٢٩هـ. ونشرتها أيضاً مكتبة المعارف؛ الطائف ط/٣ ؛ تحرير: محمد سعيد كمال؛ ت.د. انظر: "محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف؛ مرجع سابق؛ ص: (٧٥٣)

(٨) البتنوني: نسبة إلى بتنون من أعمال المنوفية؛ رافق المؤلف رحلة موكب حج الخديوي عباس حلمي باشا، ووصف بتفصيل دقيق أحداث الرحلة، من خروج الموكب من القاهرة في ٢٩/ ذي القعدة سنة ١٣٢٧هـ؛ وحتى عودته، وكان على اطلاع تام على تاريخ المسجد النبوي وقد نقل عنه من جاء بعده. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٥٤٥/٣.

أيام، ووصف معالم المسجد النبوي، ومحتويات الحجرة الشريفة بدقة لا نظير لها بين الرحالة في شتى العصور، إذ عرض تاريخ كل معلم في إيجاز غير مخل، وقاس أبعادها بالمتر؛ موثقاً كل ذلك بالصور الفوتوغرافية.

الرحلة الثالثة عشرة: "رحلتي إلى المدينة المنورة"[1] تأليف: الرحالة الدمشقي : محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاف[2] (١٢٨٣-١٣٣٢هـ) سافر إلى المدينة المنورة بالقطار سنة ١٣٢٨هـ، ومكث فيها تسعة أيام، خط رحلته بأسلوب اليوميات، واهتم بلقاء العلماء، وزيارة مكتبتي عارف حكمت والمحمودية.

الرحلة الرابعة عشرة: "رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي إلى مصر وفلسطين والشام والحجاز"[3] المؤلف: خواجة حسن نظامي الدهلوي[4] (١٢٩٦ـــ ١٣٧٤هـ) زار المدينة المنورة في ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٢٩هـ؛ و مكث فيها ١٥ يوماً، رصد خلالها بأسلوب اليوميات ما شاهده في المسجد النبوي الشريف من برودة المسجد رغم شدة الحر، كما وصف سدنة المسجد النبوي، وبعض العادات داخل المسجد.

الرحلة الخامسة عشرة: "شفاء الغرام: حج بيت الله الحرام؛ حجة الحجوجي"[5] تأليف: محمد بن محمد الحجوجي الإدريسي الفاسي الحسني[6] (١٢٩٧ـــ١٣٧٠هـ) حج المؤلف سنة ١٣٢٩هـ، ومكث في المدينة المنورة أربعين يوماً التقى خلالها بطائفة من علمائها، فترجم لهم

---

(١) طبعت بتحقيق: محمد بن ناصرالعجمي؛ الناشر: دار البشائرالإسلامية للطباعوة والنشر؛ بيروت ١٤٢٩هـ.

(٢) فقيه وأديب، ولد في دمشق، وتلقى التعليم على أبيه وعدد من العلماء، يعد من المجددين في المذهب السلفي،نافت تصانيفه على السبعين. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٥٨٩/٤.

(٣) ترجم الرحلة: سمير عبد الحميد إبراهيم؛ ونشرها: المجلس الأعلى للثقافة؛ القاهرة: ٢٠٠٢م. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٠٨٧/٣.

(٤) الرحالة: تاجر هندي، وأديب وإعلامي، كسب ثروة من تطوير صناعة الأدوية والعلاج، أصدر مجلة أدبية شهرية، وعدة كتب، ثم مجلة خاصة بالأدوية وطرق العلاج، كما أسس جمعية خاصة بالصوفية وتفقد أحوال رجالاتها في الهند، قام برحلة سياحية عام ١٣٢٩هـ، زار فيها مصر والشام والحجاز، وكتب عنها، وتظهر في كتاباته الروح الأدبية الصوفية. الرحلات إلى المدينة ١٠٨٨/٣.

(٥) مخطوط: في مركز جمعة الماجد، دبي، الإمارات العربية المتحدة.

(٦) عالم متصوف، شاعر، كان شيخ الطريقة التيجانية في زمنه، تلقى العلم في فاس مسقط رأسه، ثم التحق بجامعة القرويين، وأخذ علوم القرآن الكريم والحديث الشريف، ثم انتقل إلى الزاوية التيجانية في بلدة دمنات، وانقطع فيها للتدريس والتصنيف، له ما يقرب من ٩٠ مؤلفاً. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٥٩٩/٤.

وسرد الإجازات التي أجيز بها.

الرحلة السادسة عشرة: "مرشد الحجاج الى الأماكن المقدسة"[1] المؤلف: محمد حسن غالي[2] (بعد ١٣٤١هـ) حج مرتين، مرة عام ١٣٣٠هـ؛ والأخرى عام١٣٤٠هـ، وقدم وصفاً لأهم المعالم التي يزورها الحاج، ووصف بدقة معالم المسجد النبوي، وكأنه اطلع على ما كتبه الرحالة الفذ محمد لبيب البتنوني ، ودعم وصفه ببعض الخرائط والصور الفوتوغرافية.

الرحلة السابعة عشرة: "الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية"[3] تأليف: محمد بن عبدالرزاق كرد علي[4] (١٢٩٣ـ ١٣٧٢هـ) ؛ رصد المؤلف زيارته للمدينة المنورة عام ١٣٣٤هـ، وكتب عن المنح والعطايا التي وزعت على أهالي المدينة المنورة ومسؤوليها ، وطريقة الاستقبال الكسروية التي أتحفوا بها ، بأسلوب لا تخفى فيه الدعاية والمالأة.

---

(١) نشر المؤلف رحلته في القاهرة عام ١٣٤١هـ.

(٢) لم نعثر على معلومات تفصيلية عنه، ذكر في رحلته أنه من أهالي طنطا بمصر، وأنه مفتش التعليم بمجلس مديرية التعليم بالغربية، حج مرتين، وألف كتابه ليستفيد الحجاج من تجربته في الرحلتين. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٦٧٠/٤.

(٣) نشرت الرحلة مكتبة الثقافة الدينية؛ القاهرة عام ٢٠٠٧م. ولهذه الرحلة أهداف سياسية قبيل الحرب العالمية الأولى، فقد قام كل من جمال باشا قائد الجيش، وأنور باشا آمر الحربية في سوريا بزيارة إلى المدينة المنورة بالقطار سنة ١٣٣٤هـ؛ مصطحبين المؤلف الذي كان بمثابة رجل الإعلام ليشيد بعاطفتهم الإسلامية، وذلك لحشد الجماهير لنصرتهم في الحرب، ومقدمة للتجنيد الإجباري تحت مسمى الجهاد. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٦٥٧/٤.

(٤) مفكر وأديب وإعلامي ورئيس المجمع العلمي بدمشق، دعا فيها إلى الانفصال عن الدولة العثمانية بادئ الأمر، ثم هرب إلى مصر فأوربا، لكنه سرعان ما عاد إلى سوريا، وألزمه جمال باشا بإعادة جريدته، والدعوة إلى الدولة العثمانية طيلة الحرب العالمية الأولى، تولى حقيبة وزارة المعارف في سوريا مرتين بعد الاستقلال. انظر: الرحلات إلى المدينة ١٦٥٧/٤.

المطلب الأول: المسجد النبوي الشريف كما يراه رحالة العصر العثماني الثاني

مما يلاحظ على رحالة هذا العصر أن الذين أكملوا دراساتهم في المدارس والجامعات الغربية قدّموا ـــ على الرغم من ركاكة أسلوبهم وكثرة أغلاطهم اللغوية ـــ وصفاً للمسجد النبوي أكثر شمولية وأدق تفصيلاً من غيرهم، ولعل ذلك يعود إلى الإمكانات التي توفرت لهم، والأجهزة التي كانت معهم.

وأول ما نسجله في حديث الرحالة عن المسجد النبوي اختلافهم في تحديد موقعه من المدينة المنورة، فذهب اللواء محمد صادق باشا إلى أنه يقع في وسط المدينة،[1] ووافقه الرحالتان المصريان لبيب البتنوني ومحمد حسن غالي في أنه يقع في وسط المدينة لكن مع ميلان إلى الشرق،[2] وانفرد الرحالة محمد بيرم بقوله: "والحرم الشريف النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام في جهتها الشمالية الغربية".[3] وهذا الاختلاف يعود إلى الرؤية العامة للكتلة العمرانية التي كانت عليها المدينة المنورة آنذاك وموقع المسجد النبوي منها، ولا شك فإن تحديد البتنوني ومن معه للموقع أدق حسب ما نعلمه من صور الرفع المساحي للمدينة المنورة في ذلك الوقت.

كما سجل عدد من الرحالة المظهر العام الذي يبدو عليه المسجد النبوي حين يظهر من بعيد، قال محمد حسن غالي: "وقبيل المدينة بنحو ١٠ كيلو مترات تظهر للمسافرين مآذن الحرم المدني والقبة الخضراء"[4]. ويقول اللواء محمد صادق باشا: "والحرم النبوي بوسط المدينة كمشكاة فيها مصباح، وقبته الخضراء ترى من بعد كأنها قباب ملك وسط معسكره؛ والمنارات الخمسة كأعلام النصر يحصل للرائي عند مشاهدتها الانشراح والسرور"[5].

---

(١) انظر: رحلات الحج ٣١٤/١.

(٢) انظر: "الرحلة الحجازية" للبتنوني؛ مكتبة المعارف؛ الطائف ط/٣ ؛ تحرير: محمد سعيد كمال؛ ت.د؛ ص٢٣٩.

(٣) انظر: "رحلات الحج ٢٩٧/١.

(٤) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٦٧١/٤.

(٥) انظر: رحلات الحج ٣١٤/١.

واستعرض الرحالة البتنوني تاريخ العمارات التي جرت للمسجد النبوي، ثم ختمها بالحديث عن عمارة السلطان عبد المجيد التي أمر بها عام ١٢٧٠م، وقال: "وتمت عمارته على ما هي عليه الآن، ووشاه بالنقوش والزخارف التي تفوق حد الوصف، وكتب على جداره مبتدئاً من باب السلام إلى الشرق، سورة الفتح بالخط الثلث المجوف، وفي السطر الذي تحتها سورة أخرى بخط أرفع منه ولكنه أكثر تعليقاً، ومن تحته سطر آخر أصغر من الذي فوقه، فيه أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، وقصيدة البردة مكتوبة في محيط قباب المسجد، وفي الزوايا التي ترتكز عليها هذه القباب أسماء الله ورسوله وآله وبعض صحابته. وكل ذلك مكتوب بخط غاية في جماله، وحسن تنسيقه، وكمال وضعه". ثم قال: "وليس هناك أثر يذكر لمن بعده[١] من الملوك سوى ما أدخل إليه من أسلاك النور الكهربائي في زمن السلطان عبدالحميد، وابتدأت الإنارة به في الحرم الشريف رسمياً في يوم الاحتفال بافتتاح السكة الحديد الحجازية بالمدينة المنورة في ٢٠ شعبان سنة ١٣٢٩م"[٢].

واستدرك الرحالة خواجة حسن نظامي على البتنوني إصلاح السلطان عبدالحميد لأساساته المسجد النبوي فقال: "حين ضعفت أساسات أعمدة الحرم قام السلطان عبد الحميد برصد مبالغ مالية معقولة لعمل حلقات سميكة جميلة لتدعيم هذه الأساسات؛ وكانت هذه آخر مأثرة لهذا الخليفة"[٣]. وقد نقل اللواء محمد صادق باشا خبراً عن هذه الإصلاحات فقال: "وأخبرني محمود أفندي مهندس تعمير الحرم النبوي أنه لما أراد وضع العمود الذي بجانب باب الوفود من الحجرة نبعت بعد حفر ثمانية أذرع عين ماء أبيض، في أشد الحلاوة، بخلاف ماء المدينة، ووجد لديه جذور نخل ... وسد على هذه العين بوضع الأساس الجديد، وقد شاهدت قطعة من هذه الجذور"[٤].

وذكر الرحالة محمد غالي أنهم ميزوا في هذه التوسعة أعمدة الحرم الأصلي قبل

---

(١) يريد ما بعد السلطان: عبدالمجيد خان.

(٢) انظر: "الرحلة الحجازية"؛ ص٢٣٩.

(٣) انظر: رحلات الحج ٣٤٧/٢ .

(٤) المرجع السابق، ٣١٤/٢-٣١٥.

الزيادة، وذلك بجعل "نصفها الأسفل من الرخام الأبيض، أما الزيادة فقد تميزت أعمدتها بطبقة من النحاس الأصفر على ارتفاع نحو ٧٠ سنتمتراً"[١].

واختلف الرحالة في قياس مساحة المسجد: فذكر البتنوني أن: "متوسط طوله من الشمال إلى الجنوب مئة وستة عشر متراً وربع، وعرضه من الشرق إلى الغرب، من جهة القبلة، ستة وثمانون متراً وخمسة وثلاثون سنتيمتراً، ومن جهة الباب الشامي ستة وستون متراً"[٢]. وقال الرحالة محمد غالي: "طوله الممتد من الشمال إلى الجنوب ١١٩ متراً، وعرضه من الشمال ٦٦ متراً ومن الجنوب ٨٩ متراً"[٣]. واستعمل بعض الرحالة في قياسه الذرع، واختلفوا فيه أيضاً[٤]. ولعل هذا الاختلاف يرجع إلى الموضع الذي أخذت منه المقاسات، هل هو من الداخل أم من الخارج.

ويلاحظ "أن القائمين على تنفيذ عمارة السلطان عبدالمجيد قد حافظوا على صورة المسجد النبوي التي كان عليه بقسميه المبنى والصحن؛ فالقسم الأول مبنى المسجد: يبتدئ من قبلة عثمان، أعني: من الحائط القبلي إلى الصحن، من جهة، وفي طول ما بين باب الرحمة وباب النساء من جهة أخرى. وهذا القسم جميعه مغطى بقباب ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب. والقسم الثاني: وهو الصحن، ويسمونه الحصوة، شكله مستطيل إلى الباب الشامي"[٥].

ووصف الرحالة محمد حسن غالي صحن المسجد فقال: "وفي وسط المسجد فضاء سماوي يسمى بالصحن أو الحصوة، وهو متسع يمتد إلى قرب الباب المجيدي، وبه: بستان فاطمة: يحوي أشجاراً ونخيلاً، وبجانبه حوض مياه لشرب حمام الحمى الذي يكثر عدده في هذا الفضاء، وعلى سطح الحرم؛ للاسترزاق من الحبوب التي يأتيه بها الزائرون، وعلى طول

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٦٨٤/٤.

(٢) انظر: الرحلة الحجازية؛ ص٢٣٩.

(٣) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٦٨٠/٤.

(٤) انظر: رحلات الحج؛ ٢٩٧/٢، ٣١٤.

(٥) الرحلة الحجازية للبتنوني ص٢٣٩.

الضلع الشمالي من الحرم أنشئت مخازن للزيوت ومكاتب يعلم فيها القرآن الكريم"[1]. وقال البتنوني: "وفي وسط الصحن يميل إلى الشرق حظيرة صغيرة سورت بدربزين من الحديد، وفيها بعض نخل صغير نبت حول نخلة عالية، ... وقبلي هذه الحظيرة بئر ماؤها لذيذ اسمها بئر النبي، وبعضهم يسميها: زمزم المدينة"[2].

ويصف الرحالة محمود ياسين أروقة المسجد وأعمدته: فيقول: "ويحيط به من جهاته الثلاث، أروقة ثلاثة، فيها أعمدة تحمل أقواساً، رفعت عليها قباب تناطح السحاب"[3]. وذكر بيرم أن تلك القباب: "مرفوعة على أقواس قائمة على أسطوانات من المرمر الأحمر المأخوذ من مقاطع حجرية قرب المدينة، وكذلك عوارض الأبواب"[4]. واتفق البتنوني وغالي على أن "عدد جميع أعمدته بما فيها الملتصقة بحوائطه بلغ ثلاث مئة وسبعة وعشرين عموداً، منها ٢٢ داخل المقصورة الشريفة"[5].

وأجمع الرحالة أن "أرض المسجد مفروشة برخام من المرمر اللامع الصقيل"[6].

وحافظ المسجد في هذا العصر على مآذنه الخمسة، وحدد اللواء محمد صادق باشا مواقعها في معرض حديثه عن الأبواب فقال: "باب السلام في ابتداء الجدار الغربي من زاويته القبلية وفوقه مئذنة، ويبتدئ الزائر بالدخول منه، وفي وسط الباب الثاني، وهو باب الرحمة من خارجه مئذنة صغيرة، وحنفيات للوضوء، وبابتداء الحائط الشرقي مئذنة تواجه باب السلام، وباب جبريل بالحائط الشرقي بالقرب من البرزخ أمام باب السيدة فاطمة، وباب النساء بالحائط المذكور أيضاً مواجهة لباب الرحمة، والجدار الشمال في كل طرف منه منارة، وفي وسطه باب التوسل"[7].

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٦٨٠/٤.

(٢) الرحلة الحجازية، ص٢٣٩.

(٣) الرحلات إلى المدينة المنورة ١١٥٥/٣.

(٤) انظر: رحلات الحج، ٢٩٧/١.

(٥) انظر: الرحلة الحجازية للبتنوني؛ ص٢٣٩.

(٦) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٦٨٤/٤.

(٧) رحلات الحج؛ ٣١٤/١-٣١٥.

والمسجد النبوي كما ذكر البتنوني وغيره : "مفروش بأنواع السجاد العجمي الثمين، وفيه شيء كثير من الأبسطة المصنوعة بفوريقة هركه الشهيرة، وخصوصاً في الروضة الشريفة"[1].

وذكر البتنوني أيضاً أن طول الروضة الشريفة: "الممتد من الشرق إلى الغرب ٢٢ متراً، وعرضها ١٥ متراً، ويفصل الروضة عن زيادتي عمر وعثمان اللتين في جنوبها، دربزين (شبك) من النحاس الأصفر ارتفاعه نحو متر"[2].

ومن الملاحظ حديث الرحالة على الأسطوانات التاريخية التي في الروضة الشريفة بشكل مفصل لم أعهده من قبل، ولعل ذلك يعود إلى وضع أسمائها عليها في توسعة السلطان عبد المجيد، مما يساعد على معرفتها بدقة، ويلفت الانتباه إليها. ومما يوضح ذلك قول الرحالة محمد يحيى المختار الولاتي: "وأما تَتَقُلُنا بالنهار فتارة في مصلاه الشريف عند محرابه تجاه الأسطوانة المخلقة التي كان يصلي إليها، ... وتارة عند أسطوانة عائشة رضي الله عنها ...، وتارة عند أسطوانة التوبة (أسطوانة أبي لبابة)، التي ربط نفسه بها حتى تاب الله عليه، وتارة بأسطوانة السرير، وهي التي كانت يوضع لرسول الله ﷺ عندها سريره الذي يعتكف عليه في رمضان، وتارة عند أسطوانة المحرس، وهي التي ظل يجلس عندها علي بن أبي طالب زماناً بالليل يحرس رسول الله ﷺ ... وتارة انتقل في سائر روضة الجنة إن وجدت هذه الأساطين مشغولة بالمصلين"[3].

وأما محاريب المسجد النبوي الشريف، فظلت كما كانت عليه في العصر السابق، وبقي المنبر الموجود هو منبر السلطان العثماني مراد الثالث الذي أهداه إلى للمسجد النبوي سنة٩٩٨هجرية.

كما أنه من الجديد في هذا العصر حديث بعض الرحالة على تخصيص مكان لصلاة النساء: قال البتنوني: "وراء هذه الحظيرة ـــ يريد: البستان الذي في صحن المسجد ـــ أقيمت

---

(١) انظر: الرحلة الحجازية؛ ص٢٤٠-٢٤١.

(٢) المرجع السابق في نفس الصفحة.

(٣) انظر: عبدالهادي التازي؛ مرجع سابق؛ ص٥٦٢. والرحلات إلى المدينة المنورة ١٣٣٥/٣.

شبكة من خشب الشيش على طول الرواق الشرقي، عملت في عمارة السلطان عبد المجيد، إشارة إلى أنه مخصص للنساء، ففيه صلاتهن وإقامتهن في الحرم"[1].

ولأول مرة يتم الحديث عن الدكة التي في شمال المقصورة الشريفة، ونسبتها إلى الأغوات، قال البتنوني: "وفي جنوب هذا الرواق مصطبة مسطحها نحو ١٢ متراً طولاً في ٨ أمتار عرضاً، وترتفع عن الأرض بمسافة نحو أربعين سنتيمتراً، وكانت في عهده-صلى الله عليه وسلم- مكاناً لأهل الصفة" [2] ثم قال: "وتجاه هذه الدكة من الجنوب دكة أخرى أصغر منها متصلة بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال، كان يتهجد في مكانها النبي صلى الله عليه وسلم، ويفصل بين الدكتين طريق إلى باب جبريل شرقاً"[3].

ويبدو أن أبواب المسجد الأربعة التي كانت في الجهة الغربية والشرقية قد حوفظ عليها في هذه التوسعة، وأضيف إليها أخرى في الجهة الشمالية، وقد تحدث البتنوني عن هذه الإضافة في سياق حديثه عن الجهة الشمالية فقال: "وفي مدخل الباب الشامي المدرسة المجيدية، وفيها كتابان لتعليم القرآن على الطريقة القديمة في ريف مصر، ... ويوجد في الدور الثاني كُتّاب يقال إنه يدرس فيه غير القرآن المجيد شيء من الحساب، ولهذا المدخل باب للحرم من الداخل يسمونه باب التوسل؛ وإلى جانبه من جهة الغرب محل للأغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف، وفيه ميضاتهم وأمكنة راحتهم؛ وإلى جواره مخزن الزيت المخصص لتنوير الحرم، ثم باب المدرسة، وهذه الأبواب الثلاثة في الرواق الشمالي"[4].

وما أشار إليه البتنوني من الأبواب الثلاثة في شمال المسجد هي ليست مفتوحة على خارجه، ولا يدخل منها المصلون الساكنون في تلك المحلة إلى المسجد النبوي، فلا تعد من ضمن أبواب المسجد الرئيسة، سوى الباب الذي أطلق عليه اسم (باب التوسل)، والذي بات

---

(١) انظر: الرحلة الحجازية ص٢٣٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ونسبة هذا المكان لأهل الصفة على قول بعض العلماء، بينما الجمهور على أن الصفة كانت داخل المسجد النبوي الشريف. انظر بحث: الصفة في المسجد النبوي: وصف وتاريخ. ص٣٣. للمؤلف.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) انظر: "الرحلة الحجازية" محمد لبيب البتنوني؛ مكتبة المعارف؛ الطائف ط/٣ ؛ تحرير: محمد سعيد كمال؛ ت.د ؛ ص: (٢٣٩)

يعرف لاحقاً بالباب المجيدي[1].

كما تحدث البتنوني أيضاً عن الميضأة فقال: "بجوار باب الرحمة وباب السلام من الخارج حنفيات للوضوء من عمل السلطان عبد المجيد كما توجد أمكنة للحاجة على بعد منها"[2].

وأما المقصورة الشريفة فقد أشار رحالة هذا العصر إلى أنها لا تزال على عمارة السلطان قايتباي، لم يحدث فيها تغيير، وأعادوا كثيراً مما ذكره رحالة العصور الماضية من الحديث عن بنائها، والقبور التي تضمنتها، وسرد بعضهم قصة إحاطة الحجرة النبوية ببناء آخر على يد نور الدين زنكي، إلى غير ذلك من الروايات التي تعرف بعضها وتنكر بعضها.

والجديد الذي قدمه لنا البتنوني عن المقصورة الشريفة هو حديثه عن التجديد الذي طال القبة التي فوقها فقال: "وفي سنة ١٢٣٣ أعاد السلطان محمود تجديد القبة الشريفة، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الأخضر في سنة ١٢٥٥، ومن ثم سميت: بالقبة الخضراء"[3]. كما قدم لنا قياس المقصورة بالمتر، فقال: "طول ضلعها الجنوبي والشمالي ١٦ متراً، ومن الشرقي والغربي ١٥ متراً". قال: "وفي زواياها الأربع أعمدة مرمرية عظيمة، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف، وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة"[4]. "وعلى ضلع هذه الشبكة القبلي مرقوم عليه بالخط العربي الجيد الوضع المحكم الصنع، هذا الحديث مكرراً من النحاس الأصفر اللامع: لا إله إلا الله الملك الحق المبين؛ محمد رسول الله صادق الوعد الأمين"[5]. قال البتنوني: "ويتصل بهذه المقصورة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة: وهي على استقامتها من الغرب، وتدخل عنها بمسافة متر ونصف من الشرق". قال: "وقاسوا أبعادها بالمتر فبلغ طولها من الجنوب ١٤ متراً ونصف، ومن الشمال ١٤ متراً فقط، ومن الشرق والغرب نحو سبعة

---

(١) انظر: الرحلات إلى المدينة المنورة ١٣٢٩/٣.

(٢) المرجع السابق في نفس الصفحة.

(٣) الرحلة الحجازية، ص ٢٤٣.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) المرجع السابق نفسه.

أمتار ونصف"[1].

وانفرد البتنوني في تعيين موقع مصحف عثمان رضي الله عنه من المقصورة، فقال: "وبين بناء المقصورة والشبكة النحاسية الخارجة طرق متوسطة، سعتها نحو ثلاثة أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبلية، وفي زاوية هذه الطرقة من الجنوب كرسي موضوع عليه مصحف شريف كبير، أهداه إلى الحجرة الشريفة الحجاج بن يوسف الثقفي، ويقولون إنه من المصاحف الستة التي كتبها عثمان بن عفان"[2]. وأضاف اللواء محمد صادق باشا أن: "هذا المصحف الشريف هو الذي قتل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وهو في حجره ووقع دمه فيه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3]، ولايزال هذا الأثر باق فيه إلى الآن"[4]. وكلام محمد صادق باشا فيه من المبالغة ما لا يخفى.

كما أطنب البتنوني ومحمد صادق باشا وغيرهما من الرحالة في الحديث عن التحف الثمينة التي كانت في الحجرة الشريفة، وأنواعها، وأشكالها، ومواقعها، وأسماء من أهداها، والتعديات التي طالتها من قبل بعض ولاة المدينة آنذاك[5].

كما تحدثوا عن ستائر المقصورة، وأشكالها، وألوانها، والكتابات التي وشيت بها، وقال حسن غالي: "إن هذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها. والكسوة الحالية وصلت إلى الحجرة الشريفة بعد إعلان الدستور"[6].

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) انظر: "الرحلة الحجازية" ؛ ص ٢٤٣.

(٣) سورة البقرة: ١٣٧.

(٤) انظر: رحلات الحج؛ ٣١٤/١-٣١٥.

(٥) السابق بفسه.

(٦) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٥٦٥/٣.

المطلب الثاني: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر العثماني الثاني في المسجد النبوي.

رصد رحالة هذا العصر كثيراً من المظاهر والعادات التي كانت تجري في المسجد النبوي الشريف، ويعد بعضها امتداداً لما كانت عليه في العصر السابق، كعاداتهم في المواليد، والجنائز، وتعدد الجماعات، والإفطار الجماعي في رمضان، ومظاهر التسول، وغير ذلك مما جرى الحديث عليه في المبحث السابق، وبعضها لم يتم رصده في العصور السابقة، إما لكونه مما جد في هذا العصر، أو لكونه مما لم يتحدث عنه رحالة ذلك العصر، ومن ذلك:

١-**عادتهم في صلاة التراويح**: فقد كانوا يصلونها على شكل جماعات متعددة، تصل إلى "خمسين أو ستين جماعة، لكل منهم إمام مخصوص، يضعون في مقابلته شمعدانين بهيئات مختلفة يدل كل واحد على ما إذا كان الإمام يطول في صلاته أو يتوسط أو يقصر، فيصلي كل إنسان وراء من يريده، وبعد ختام التراويح يعيدونها إلى الحجرة الشريفة باحتفال كبير، ويتشرف بحمل هذه الشمعدانات من يحضر من الأمراء والأعيان بدعوة خصوصية ترسل إليهم من شيخ الفراشة النبوية"[(١)].

٢-**ومن عاداتهم إغلاق أبواب المدينة يوم الجمعة**، "لتكون الصلاة متفقاً عليها عند الأئمة، حيث إن الشافعي لا يقول بتعدد الخطبة؛ ولذلك ترى السادة الشافعية يصلون الظهر عقب صلاة الجمعة في البلدة التي تتعدد بها المساجد الجامعة، ولم يكن بالمدينة مسجد جامع غير الحرم الشريف، وهذا علة غلقهم باب السور المذكور عند صلاة الجمعة لتصير المناخة منفصلة كبلد أخرى"[(٢)].

٣- **ومن عاداتهم**: "أن يصعد المؤذنون على المآذن، وينشدون في مدح الرسول، ويصلون ويسلمون عليه، ويتلون أيضاً آيات من الذكر الحكيم، وبخاصة في الثلث الأخير من الليل قبيل الفجر"[(٣)].

---

(١) الرحلة الحجازية، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٠٧٤/٣، نقلاً عن الرحلات الحجازية.

(٣) المرجع السابق ١٠٩٧/٣، نقلاً عن رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي.

٤- **ومن عادتهم**: أنهم "يقفلون أبواب المدينة في وجه الزائرين من الحجاج إذا تحقق أنهم ملوثون بالوباء، ولكنهم يفتحون لهم طريقاً من الباب المجيدي إلى باب الحرم، فيزورون ويسافرون بعد يوم أو يومين على الأكثر بقوافلهم التي يجب أن تكون مخيمة خارج البلد، ولذلك ترى أهل المدينة على الدوام بعيدين عن الأوبئة بالمرة"[١]. وقد يحصل بسبب ذلك تدافع بين الداخلين إلى المسجد والخارجين منه، "فيتراكم بعضهم على بعض، ويزدحمون في الطريق الموصل إلى هذا الباب، حتى إذا وصلوا إليه، أخذوا يتدافعون للدخول إلى المسجد، وهناك يجدون مئيناً ممن في داخله متدافعين للخروج منه، فتلتحم القوتان، ولا يزالون حتى يظهر فريق منهم على الآخر، فيهجمون عليهم ويطؤونهم بأقدامهم، ويموت من جراء ذلك خلق كثير، كما حصل في سنة ١٣٢٩هـ، وعليه فيجدر بمشيخة الحرم في مثل هذه الأحوال أن تجعل باباً من الحرم للداخلين وآخر للخارجين"[٢].

٥- **ومن عادتهم**: "أن يصطحب الزائر عند الدخول من باب السلام أحد المزورين، ويتفقون على رسوم الزيارة، ولديهم أدعية مأثورة تتلى"[٣]. ويقول خواجة حسن نظامي: "أخذنا المزور إلى الداخل عبر باب السلام، كان يقول بعض العبارات ويلقننا إياها، كان هذا أول يوم، حكم القوي على الضعيف، كنا نردد ما يقول كالببغاوات، لكننا كنا نفتقد المتعة. كان اللسان يريد أن يلهج بالدعاء، بينما كان المزور يقول: اقرأوا السلام، ويظل يطلب النذور عند كل موضع، يا أخي كل شيء لك". و في موضع آخر يقول: "قال المزور: سوف ألقنكم السلام بعد كل صلاة. فقلت له: لا يا سيدي اتركني وحالي، سوف تنال حقوقك كاملة !"[٤].

٦- **ومن عاداتهم**: "أن كل واحد من أهل المدينة يقدم كل سنة في ليلة السابع والعشرين

---

(١) الرحلة الحجازية؛ ص ٢٤٣.

(٢) السابق نفسه.

(٣) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٠٧٤/٣، نقلاً عن مشعل المحمل.

(٤) المرجع السابق ١٠٩٠/٣، نقلاً عن رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي.

من ذي القعدة مقداراً من الحنطة على سبيل الهدية إلى الحجرة الشريفة، ... يضعها في كيس جديد من القماش اللطيف الأبيض... وهذه الأكياس يأخذها خدمة الحجرة المطهرة، ويهدون منها إلى عظماء المسلمين على سبيل البركة"[1]. وهذا مما لا ينبغي أن يكون في مسجد رسول الله.

ويذكر الرحالة الروسي عبدالعزيز دولتشين: "أن الفرس من الشيعة يشتركون في الصلاة العمومية في الحرم الشريف وراء الإمام، و لكن يقولون: إنهم غالباً ما يهينون القبرين المقدسين لخليفتينا الأولين أبي بكر و عمر رضي الله عنهما، تاركين قربهما الأقذار؛ ويبصقون في ثغرات الأبواب، وإذا رأوهم يفعلون ذلك في الحرم الشريف ضربوهم"[2].

ويتحدث اللواء محمد صادق باشا عن مراسم الاحتفال بموكب المحمل المصري[3] فيقول: "وفي يوم الأحد ١٠ منه وكب المحمل – أي: سار في موكب- في الساعة الثالثة ؛ وأمامه الأمير والأمين ومحافظ المدينة والضباط والعساكر الخيالة صفين ... إلى أن وصل إلى باب السلام، وصعد الجمل على السلم، وبرك عند العتبة في متسع بقدر مبركه مع الراحة، ثم رفع المحمل من فوقه وأدخل الحرم إلى محله المعتاد سنوياً بالقرب من المنبر النبوي، وطويت كسوته بمفرداتها، وحملها بعض المستخدمين وأغوات الحجرة الشريفة بعد أن لبس كل منهم جبة بيضاء وحزاماً وعمامة، ودخلوا إلى الحجرة النبوية من الباب المسمى بالشامي، وتركوها في بقعة السيدة فاطمة رضي الله تعالى عنها بجوار ضريحه الشريف، وأما البيرق فوضع بجوار الفجوة الكائنة عند الوجه الشريف وترك هناك، وبعد أن دعوا الله متضرعين خرجوا من باب السيدة فاطمة مسرورين... وعند قيام الحاج المصري من المدينة يخرجون كسوة المحمل من البيرق من الحجرة، ويوكبونه[4] من باب السلام، ويمر بالشارع ويخرج من

---

(١) الرحلة الحجازية؛ ص ٢٤٣.

(٢) الحج قبل مئة سنة، ص١٥٠.

(٣) يحتوي المحمل على: على رواتب موظفي المسجد النبوي، والهدايا المرسلة إليه، وإلى الحجرة الشريفة.

(٤) أي: يخرجون به في موكب.

حيث أتى"[1].

ويسجل الرحالة خواجة حسن نظامي مشاهداته حول حرارة جو المدينة، والفرق بينه وبين جو المسجد النبوي فيقول: "رغم أن حرارة الجو كانت من الشدة بحيث لا يسكن الإنسان إلى ناحية واحدة، لكن حين خطونا أول خطوة داخل الحرم، شعرنا بأننا نمضي داخل ثلاجة ! كلما فكرت في شيء وجدت أن العقل يعجز عن فهم أسبابه"[2].

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ١١٣٦/٣، نقلاً عن مشعل المحمل.

(٢) المرجع السابق ١٠٩٢/٣، نقلاً عن رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي.

المطلب الثالث: حديث رحالة العصر العثماني الثاني عن سدنة المسجد النبوي الشريف.

يرتبط الحديث عن سدنة المسجد النبوي والمقصورة الشريفة بالعصر السابق، إذ تتشابه إلى حد بعيد مراتبهم، وأعمالهم المنوطة بهم، وعاداتهم التي يقومون بها، إلا أنه ظهرت في هذا العصر إحصائيات أكثر دقة وشمولاً.

ويحدثنا البتنوني عن موظفي المسجد النبوي فيقول: "ويوجد بالحرم النبوي للخدمة فيه نحو ألف نفس، منهم ٤٦ خطيباً، يتولى الواحد منهم خطبة الجمعة مرة واحدة في السنة، طبقاً لترتيب مخصوص لا يتعدونه، ولهم وكلاء كثيرون يتناوبون الخطبة عند غياب الخطيب، و ٣٨ إماماً، و٩٢ مساعد إمام، يتناوبون الإمامة في الصلاة، و٥٠ مؤذناً، و٢٩ مساعد مؤذن، و٥١ كناساً، و١١ بواباً، و٢٩ صائغاً وحاجباً وخياطاً وخلافهم، و١٠ سائقين[١]، و٤ ملائين، و٥٧٠ لغسيل وتنظيف وتعبئة قناديل الحرم"[٢].

قال: " وأغلب خدمة الحرم الشريف من غير مرتبات، ويعيشون من خيرات ذوي البر والإحسان، والقاعدة في خدمة الحرم الشريف: أن من يموت منهم توزع وظيفته و مرتبه على أولاده جميعاً، فإذا مات الخطيب مثلاً، وكان مرتبه مائة قرش، تعين بنوه في مركزه، ووزع مرتبه عليهم وتولى العمل مكانه أكبرهم، وهكذا باقي الخدمة؛ لذلك ترى مرتبات الكل غير كافية بمعاشهم"[٣]. ومما يؤيد ذلك ما ذكره محمد كرد علي في "الرحلة الأنورية" سنة ١٣٣٤هـ قال: "دفع أنور باشا ألفي ليرة للبلدية لتقسيمها على الفقراء، ثم مثلها لشيخ الحرم، ليقسمها على خدمته من علماء وخطباء وأئمة ومؤذنين وفراشين وبوابين وكناسين، ..."[٤].

ورئيس الموظفين يطلق عليه شيخ الحرم، وقد التقى به خواجة حسن نظامي، ويصفه بأنه: "شيخ تركي عجوز، طيب العشرة، التقيت به في لقاءات خاصة، وتحدثت معه عن عدة

---

(١) وهم الذين يسوقون الدواب والعربات التي تجرها الأحصنة على عجلات، الموقوفة على خدمة المسجد النبوي.

(٢) انظر: الرحلات إلى المدينة المنورة ١٥٥٧/٣، نقلاً عن الرحلة الحجازية. وقريباً من هذه الإحصائية ذكر محمد حسن غالي في رحلته.

(٣) السابق نفسه. وقد تقدم بيان معنى الآغا في العهد العثماني الأول فعد إليه.

(٤) الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية، محمد كرد علي؛ ص٨٨.

قضايا"[1]. ويقول عنه الرحالة الروسي عبدالعزيز دولتشين: "إنه ضابط عثماني سابقاً؛ اشترك في الحرب الأخيرة ضد الروس، وكان مع عثمان باشا في الأسر"[2].

ومن غريب ما ذكره الرحالة الهندي خواجة حسن: "أن جميع حراس بوابات الحرم النبوي من الهنود"[3]. ويقول: "وقد عيّن كرماء الناس هنا من يقوم بملء هذه القلل الفخارية، ومن يقوم على سقاية الناس، ويطلق عليهم اسم «زمزمي» ولهذا الأمر فائدتان: الأولى أن من ليس لهم دخل مالي ممن يريدون البقاء في المدينة يمكنهم كسب بعض المال من هذا العمل، كما أن زائري مسجد الرسول ﷺ سيجدون الماء البارد في كل حين"[4].

كما يحدثنا البتنوني عن سدنة المقصورة الشريفة فيقول: "أما الذين يقومون بحراسة الحجرة الشريفة والخدمة فيها فهم الأغوات، وأول من رتبهم للخدمة نور الدين الشهيد، وكانوا اثني عشر، واشترط أن يكونوا من حملة القرآن الكريم وحفظته، وجعل عليهم شيخاً منهم، وزادهم يوسف صلاح الدين الأيوبي اثني عشر آخرين. ومن ثم أخذت الملوك والسلاطين تزيد في عددهم إلى الآن، وقد وصل عددهم في بعض الأزمان إلى أكثر من مائة شخص، ولهم أوقاف مخصوصة ومرتبات تأتيهم سنوياً من الآستانة وغيرها. ولهم دور بالمدينة يسكنون بها"[5].

ولسدنة المقصورة الشريفة رئيس خاص بهم، يلقب: باشي الحرم[6]، و سبق أن ذكرنا مراتبهم، وأماكن مبيتهم وراحتهم، وما ذكروه عن أعمالهم. وقد ذكر البتنوني: " أن من أعمالهم أن يغسلوا الحجرة الشريفة في السنة ثلاث مرات: واحدة في يوم ٩ ربيع الأول، والثانية في أول رجب، والثالثة في الثامن عشر من ذي القعدة. ويكون لذلك احتفال كبير..."[7].

---

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ١١١٦/٣، نقلاً عن رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي.

(٢) الحج قبل مئة سنة، ص١٥٢.

(٣) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٠٩٤/٣، نقلاً عن رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي.

(٤) المرجع السابق ١٠٩٣/٣.

(٥) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٥٥٧/٣، نقلاً عن الرحلة الحجازية.

(٦) انظر المرجع السابق ١٦٨٤/٤.

(٧) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٥٦٨/٣، نقلاً عن الرحلة الحجازية.

المطلب الرابع : الحركة العلمية في المسجد النبوي كما يراها رحالة العصر العثماني الثاني:

رصدنا في المباحث السابقة انطباعات الرحالة عن الحركة العلمية في المدينة المنورة في عصورهم، وتباين آرائهم في ذلك، وتحدثنا عن دروسهم، ولقاءاتهم، والإجازات التي أعطوها أو أعطيت لهم، إلى غير ذلك مما كانت تعج به الرحلات، إلا أنني لم أجد في هذا العصر من الزخم العلمي ما كان مأمولاً مع وجود مقومات جديدة تساعد على ذلك، كظهور وسائل نقل حديثة، وانتشار الكتب المطبوعة، ولعل ذلك يعود إلى الانهيار الذي بدأ يخيم على دولة الخلافة بشكل عام، أو للتهجير الذي طال أهل المدينة أواخر هذا العهد نتيجة الحروب بين الهاشميين والعثمانيين، أو بسبب الاضطرابات والقلاقل التي سببتها الحرب العالمية، أو كل هذه الأسباب مجتمعة.

ولعل الرحالة الموريتاني محمد يحيى المختار الولاتي والمغربي محمد الحجوجي الإدريسي من أكثرهم اهتماماً بهذا الجانب، فقد ذكرا عدداً من العلماء الذين التقياهم، والكتب التي قرآها، قال الولاتي: "وممن لقينا من الأفاضل في المدينة النبوية: نقيب الأشراف السيد الأرضى علوي؛ ومنهم: محمد شامل سلطان قازان الذي نفاه النصارى وسكن بالمدينة، ... وقرأنا في مدة إقامتنا في الحرم الشريف "موطأ الإمام مالك رحمه الله، وعقود الجمان للسيوطي في علم البيان، وورقات إمام الحرمين؛ نصاباً من كل كتاب في كل يوم ضحى، و نصاباً من عقود الجمان بين المغرب والعشاء كل ليلة حتى أتممنا علم المعاني والبيان للطلبة"[1].

وأورد الحجوجي أسماء مجموعة من العلماء الذين اجتمع بهم، مترجماً لبعضهم، ومجيزاً لمن طلب منهم الإجازة منه فقال: "قد اجتمعت ـ ولله الحمد ـ بالمدينة المنورة بجماعة من العلماء الأفاضل، السراة الأماثل، منهم الشيخ الإمام ... عبد القادر توفيق الشلبي الطرابلسي الشامي، المدرس في الحرم الشريف النبوي ... ومنهم شيخنا الإمام العالم المحدث الشريف أبو عبد الله محمد بن العلامة جعفر بن إدريس الكتاني الحسني.... وممن لقيتهم: الصالح خالد

(١) رحلات الحج، ١٦/٢.

بن أحمد عبد القادر الخالدي العامري ، طلب مني الإجازة في العلم مرات، وممن لقيتهم: الشريف ... سيدي جعفر بن الخطيب بالحرم النبوي الشريف، والسيد حسن بن سيدي يحيى هاشم الحسني المدني... وممن لقيتهم: العلامة الجليل سيدي عبد القادر المهاجري الخالدي الجزائري أصلاً، الفاسي ولادة .....وممن لقيتهم: الشيخ الإمام ... المحدث الصوفي الأصولي: أبو عبد الله سيدي محمد الفاهم ... القرشي ؛ وممن لقيتهم: عالم الفضلاء ... أبو العباس سيدي أحمد بن محمد خيرات التندغي، الشنقيطي أصلا المدني قراراً وموتاً". ثم قال: "قلت: وقد اجتمعت ـ ولله الحمد ـ بأفاضل بالمدينة غير الذي ذكرنا، واقتصرت على ما ذكر خشية الإطالة، وإلا فأهل المدينة كلهم فضلاء صلحاء:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري"[1].

وذكر الرحالة عبد المحمود بن نور الدائم الطيب أنه التقى بجماعة غفيرة من علماء المدينة وصلحائها؛ منهم: الشيخ أحمد بن الشيخ محمد السمان، والشيخ محمود عبدالقادر بن عبدالجواد، والعلامة الشيخ أحمد محمد خير السناري، والشيخ محمد نور الجبرتي، وعبدالرحمن الجبرتي، والخوجة الشيخ بشير بن محمد المدرس عند الباب المجيدي، وغيرهم كثير[2].

أما **الرحالة الدمشقي محمد جمال الدين القاسمي**: فذكر أنه التقى علي بك المؤيد، والشيخ عبد الله الرواف أحد علماء نجد، والشيخ يوسف النبهاني، والشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي المقيم بالمدينة، وأضاف: "وممن اجتمعت به من مدرسيها: الفقيه الشيخ عبدالله القدومي ... ودعينا بعد العصر إلى بيت السيد أحمد البرزنجي مفتي الشافعية في المدينة المنورة، وقيل لي: إنه ينتظرك مع جماعة من أهل العلم، فسرنا إلى منزله، وقد كف بصره، فأنسنا بمذاكرته، وتبادلنا المحاضرات، وغرائب الأخبار، وسيرة المتقدمين ساعات، وكان أهدي له من مؤلفاتي: دلائل التوحيد، وغيرها، فأثنى خيراً ودعا، ولم نزل عنده من بعد العصر إلى أن صلينا العشاء، وكانت ليلة زاهرة، ولا غرو، فالرجل أجل علماء المدينة،

(١) الرحلات إلى المدينة المنورة ١٦٣٣/٤، نقلاً عن شفاء الغرام : حج بيت الله الحرام.

(٢) المرجع السابق ١٤٤٩/٣.

وأديبها الوحيد، وأهداني من رسائله ما شكرته عليه، وأهداني أيضا «ذيل تاريخ المدينة» لأخيه السيد جعفر"[1].

وقال **الرحالة الروسي عبدالعزيز دولتشين** في رحلته تحت عنوان: "دروس الحرم": "وعادة يذهب الراغبون في تحصيل العلم إلى الحرم، حيث يلقي أئمة المدينة المنورة الواسعة الشهرة الدروس والخطب في ساعات معينة من النهار أو الليل، كل منهم في موضوعه، ويتجمع حوله عدد كبير من المستمعين، وحين يجد التلميذ أنه يملك ما يكفي من المعارف في الموضوع المعني، ينتقل إلي إمام آخر، وهكذا دواليك"[2].

وذكر **الرحالة محمد كرد علي**: في "الرحلة الأنورية" من الوفد السوري المصاحب لأنور باشا آمر البحرية، وجمال باشا وزير الحربية؛ كلاً من السادة العلماء: "الشيخ أسعد الشقيري، والسيد أبو الخير عابدين مفتي دمشق، ومصطفى أفندي نجا مفتي بيروت، وكامل أفندي الحسيني مفتي القدس، وأديب أفندي تقي الدين نقيب السادة الأشراف في دمشق، يتقدمهم مولانا جلبي أفندي ... و كان في استقبالهما من أهل المدينة: "رئيسهم الأعظم السيد حمزة الرفاعي، ومدير المعارف حمزة أفندي وصفي، ثم المفتي الشيخ مأمون بري، ومفتي السادة الشافعية السيد زكي البرزنجي، ثم عين أعيان المدينة السيد زين العابدين المدني"[3].

ثم ذكر تفاصيل **درس في الجهاد لأكابر علماء المدينة** فقال: "ثم في الساعة الرابعة من يوم السبت بعد أن زارا البقيع طلبا – يقصد: أنور باشا وجمال باشا- من شيخ الحرم أن يجمع حضرات أكابر العلماء، ليلقوا درساً في الجهاد والوعظ، فلبى النداء، وأمر المفتي فجمع ستة من أكابر العلماء، وهم: مولانا الشيخ حمدان الونيس القسنطيني، عين أعيان مدرسي الحرم النبوي، ومولانا السيد محمد بن جعفر الكتاني شيخ أهل الحديث، ومولانا الشيخ خضر الشنقيطي، وأخوه الشيخ محمد حبيب الله، ومولانا الشيخ حسين أحمد الهندي، ولما التأم المجلس جلس المفتي مأمون بري أفندي بصفته شيخ علماء المدينة في صدر المجلس، ثم جلس

---

(١) رحلتي إلى المدينة المنورة"محمد جمال الدين القاسمي؛ مرجع سابق؛ ص: ١٧-١٨.

(٢) الحج قبل مئة سنة، ص ١٥٥. وانظر: د. عبدالله عبدالرحيم عسيلان؛ مرجع سابق؛ ص: (٢٦١)

(٣) "الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية" محمد كرد علي؛ مرجع سابق؛ ص٩٨.

العلماء أمامه، وعن يمينه كل في محله، ثم جلس أنور باشا و جمال باشا متصفين بالخضوع، فابتدأ المفتي بسرد أحاديث من صحيح البخاري، شارحاً لهما بما يقتضيه الحال، ثم تلاه الشيخ حسين أحمد الهندي مبيناً مزايا الجهاد، مفسراً لبعض الأحاديث النبوية، ثم تلاه الشيخ حمدان الونيس مفسراً لقوله سبحانه و تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله...) الآية. مبيناً ما يجب على المؤمن من معنى الآية الشريفة، ثم تلاه الشيخ الخضر، ثم أخوه، ثم تلاهم حضرة الأفندي أحمد كمنحيلي مرتلاً لبعض آيات الذكر الحكيم، ثم ختم الدرس مولانا السيد ابن الجعفر الكتاني بالدعاء ....ثم قام الأستاذ أحمد الشقيري من الوفد الشامي المرافق للضيفين فتكلم عن علم الجهاد، وكيفيته، ووسائله، والآيات التي تتعلق بالعلوم الحربية التي تقرأ في مدارسنا الحربية، كقوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...) الآية، و غيرها من الآيات"[1].

أما الرحالة الآخرون فاقتصروا على بث مشاعرهم نحو المدينة وساكنيها، ولم يسجلوا شيئاً عما يتعلق بالحركة العلمية في المسجدالنبوي في ذلك العصر.

□

(١) المرجع السابق نفسه.

المبحث الخامس:

المسجد النبوي الشريف في عيون رحالة العصر السعودي الحالي ما بعد سنة ١٣٤٤هـ

تمهيد: قبل الشروع في الرحلات التي جرت في هذا العهد والتعريف بأصحابها لابد لي من أن أشير إلى أنني لم أعثر في العهد الهاشمي الذي كانت المدينة المنورة تابعة له، في الفترة ما بين: (١٣٣٧ – ١٣٤٤) هجرية، سوى على رحلة واحدة جاءت في نهاية سنة ١٣٤٤هـ، في الوقت الذي كان يتم فيه إجراءات الاستلام والتسليم بين العهدين، وهي: "النفحات القدسية في الرحلة الحجازية" للرحالة: محمد بن علي زغوان الطرابلسي المقري (١٣١٥-١٣٩٥هـ)، وقد آثرت أن أدرجها ضمن رحلات العهد السعودي الحالي؛ لأنها، وكما ذكرت في المقدمة، أدركت العصرين من جهة، وليس فيها شيء مهم عن المسجد النبوي نستطيع من خلاله أن نشكل لها مبحثاً مستقلاً خاصاً بذلك العصر.

والأمر الآخر الذي ينبغي الإشارة إليه هو: الاستفاضة الكبيرة في عدد الرحلات التي وقفت عليها في هذا العصر، ولعل ذلك يرجع إلى الانفجار الهائل في وسائل النقل جواً وبراً وبحراً، والأمان الكبير الذي نعمت به هذه البلاد المباركة منذ أن دخلت في كنف الدولة السعودية الحالية. وقد بلغ مجموع ما وقفت عليه ٤٣ رحلة، أولها الرحلة التي أشرت إليها والتي جاءت في الوقت الذي دخلت فيه المدينة المنورة في العصر السعودي الحالي، سنة ١٣٤٤ هـ، وآخرها رحلة: "حكاية حج؛ موسم في مكة." للرحالة: عبدالله حمودي، التي جاءت عام ١٤١٩هـ، وهو تاريخ آخر رحلة إلى المدينة المنورة؛ وصلت إلى أيدينا، ولم أقف على أي رحلة إليها بعد هذا التاريخ.

وبعد التمعن في هذه الرحلات، وفرز ما يتعلق بالمسجد النبوي الشريف فيها، ارتأيت تقسيمها إلى المجموعات الآتية:

المجموعة الأولى: التي لم يعن فيها أصحابها بالحديث عن المسجد النبوي، إلا من خلال التعبير عن مشاعرهم؛ وما منَّ الله به عليهم من الوصول إلى المدينة المنورة؛ والصلاة في الروضة

الشريفة؛ وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، أو غير ذلك مما لا يدخل في نطاق هذا البحث، و تشمل هذه المجموعة الرحلات الآتية:

١- "النفحات القدسية في الرحلة الحجازية[١]" للرحالة الآنف الذكر: محمد بن علي بن محمد بن زغوان الطرابلسي المقري[٢] (١٣١٥-١٣٩٥هـ).

٢- "رحلة فتى يمني ١٣٦٣هـ"[٣] لراشد عبد الله عبده[٤]. حج سنة ١٣٦٦هـ ثم زار المدينة المنورة، وأمضى فيها أسبوعاً، وكتب بعد تقاعده ما علق في ذهنه من تلك الزيارة في سياق حديثه عن حياته، لذلك اقتصرت كتابته على الانطباعات التي خلفتها تلك الزيارة.

٣- "رحلة الحج إلى بيت الله الحرام"[٥] للشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجنكي الشنقيطي[٦] (١٣٢٥- ١٣٩٣هـ). خرج المؤلف للحج سنة ١٣٦٧هـ بصحبه عدد من تلاميذه، وبعد أداء المناسك انتقل إلى المدينة المنورة، وألقى درساً في المسجد النبوي.

٤- "رحلات[٧] العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي"[٨] (١٣٣٣ -١٤٢٠هـ)، زار الشيخ الندوي الحجاز وحج مرات كثيرة، أولها سنة ١٣٦٦هـ، حيث أمضى في المدينة ثلاثة أشهر، وتردد على المدينة بعد ذلك إثر حضوره المؤتمرات والندوات في المنتديات والجامعات، وكان

---

(١) طبعت بتحقيق: د. قريرة زرقون نصر، الناشر: أكاديمية الفكر الجماهيري، طرابلس، ليبيا، د.ت. انظر: الرحلات إلى المدينة " الرحلة رقم/ ٤٢.ص: (١٤٠٤).

(٢) فقيه وشاعر، ولد في طرابلس الغربي بليبيا، وتلقى العلم على شيوخ بلده؛ حج المؤلف سنة ١٣٤٤هـ ١٩٢٦م وزار المدينة المنورة، ولم يطل المكث فيها، شهد التحول السياسي بين العهدين الهاشمي والسعودي.

(٣) نشرها المؤلف سنة ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م. انظر الرحلة رقم/٧٢؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٢١٠)

(٤) طبيب يمني مهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

(٥) نشرت الرحلة: دار ابن تيمية. القاهرة د. ت. انظر الرحلة رقم/٧٥؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٢٤٤)

(٦) العلامة محمد الأمين: عالم موسوعي، له عدد من المؤلفات، أشهرها التفسير المعروف: "أضواء البيان"، توفي بمكة المكرمة ودفن فيها. انظر الرحلة رقم/٧٥ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٢٤٤)

(٧) جمعها ورتبها: سيد عبد الماجد الغوري . الناشر : دار ابن كثير، دمشق، بيروت ١٤٢٢هـ.

(٨) داعية إسلامي ومفكر وأديب هندي، ذاع صيته في العالم الإسلامي بعد تأليفه كتاب"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" اختير عضواً في هيئات ومجالس وجامعات إسلامية كثيرة، وترأس رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
انظر الرحلة رقم/٨١ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٤٤٨)

ينزل فيها في بيت شعبي لأحد تلاميذه ويعتذر عن الضيافات الرسمية، مع حرص كبار الشخصيات والوجهاء على النزول عليهم.

٥- "الطريق إلى مكة"[١] للدكتور: مصطفى محمود[٢] (١٣٤٠- ١٤٣٠هـ)، حج المؤلف سنة ١٣٨٩هـ، وزار المدينة المنورة، وشغل في رحلته بتصور أحداث السيرة النبوية المرتبطة بمعالمها ودلالاتها.

٥- "أرض المعجزات ولقاء مع التاريخ"[٣] للدكتورة: عائشة محمد عبد الرحمن الحسيني، المعروفة ببنت الشاطئ[٤] (١٣٣١ -١٤١٦هـ)، حجت المؤلفة سنة ١٣٩٢هـ في ضيافة الملك فيصل رحمه الله، وزارت المدينة المنورة بعده، عرضت بأسلوب أدبي عذب أحداث السيرة النبوية التي شهدتها معالم المدينة النبوية، وأثرها في انتشار الإسلام في آفاق الدنيا، ومزجت مشاهداتها بمشاعرها الإيمانية.

٦-"حكاية حج؛ موسم في مكة"[٥] لعبد الله حمودي[٦] (١٣٦٥هـ - ...)، زار المؤلف المدينة المنورة، قبل موسم حج سنة ١٤١٩هـ، وأمضى فيها أسبوعاً، وصف بأسلوب قصصي يعتمد على التوليف بين الحوار مع الذات " المنولوج الداخلي " والحوار مع مرافقيه تفصيلات حياة الزائرين من مسكن ومطعم وتسوق وتجوال في الشوارع المزدحمة المحيطة بالمسجد النبوي، وأنماط سلوك الزائرين رجالاً ونساء خلال الزيارة، وكان يمزج ذلك بشيء من التأمل الفلسفي والانطباع الشخصي عن الإيحاءات الروحية للمسجد النبوي في أسلوب قصصي مشوق، لذلك ترجمت رحلته التي كتبها بالفرنسية إلى عدة لغات.

---

(١) الناشر:دار العودة، بيروت .١٩٧١م.

(٢) طبيب ومفكر مصري، غزير الإنتاج أصدر تسعين كتاباً، وقدم أربعمائة حلقة تلفزيونية عن العلم والإيمان، وأنشأ مركزاً إسلامياً يضم مسجداً وعيادات طبية لمساعدة الفقراء، ومتحفاً علميا،أمضى فيه بقية حياته. انظر الرحلة رقم/ ٨٣ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٤٦٧)

(٣) الناشر :دار المعارف بمصر، ط ٣د.ت.

(٤) أديبة وأستاذة جامعية، أخرجت عدة مؤلفات متميزة عن بيت آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، تمتزج فيها السيرة بالتحليل العميق والأسلوب الأدبي الرفيع. انظر الرحلة رقم/٨٦ ؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٥٣٨)

(٥) ترجمة :عبد الكبير الشرقاوي .الناشر :دار الساقي، بيروت. د.ت.

(٦) عالم في الطبيعيات "الانتروبولوجي" من المغرب العربي، أسس في أمريكا معهد دراسات عن الشرق الأوسط، ترجمت بحوثه إلى لغات عدة. انظر الرحلة رقم/٩٢ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٦٦٧ – ٢٦٦٨)

٧- "الحباء من العيبة غب زيارتي لطيبة"[١] للعلامة أبي عبد الرحمن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عقيل الظاهري[٢] (ولد سنة ١٣٥٧هـ، وما يزال حياً متع الله به)، وصل إلى المدينة في شوال عام ١٤١١هـ لزيارة المسجد النبوي الشريف، والتفرغ لإتمام بعض مؤلفاته، فمكث فيها شهرين ، كان حريصاً على لقاء رجال العلم والثقافة والأدب، وعقد الجلسات العلمية، فجاءت رحلته سجلاً حافلاً بجوانب من الحياة العلمية والأدبية في المدينة المنورة، إلا أنه لم يتطرق للمسجد النبوي ومعالمه.

٨- "الرحلة المقدسة إلى بيت الله الحرام"[٣] لعبد الله عبد المطلب بوقس[٤] (١٣٤٩ـ١٤٣٠هـ)، تحدث المؤلف عن آداب زيارة المسجد النبوي والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمعالم التي تستحب زيارتها.

٩- "ذكريات ورحلات[٥] صالح محمد جمال[٦] (١٣٣٨-١٤١١هـ). زار المؤلف المدينة عام ١٣٦٠هـ، اقتصر فيها على استحضار أحداث الهجرة النبوية.

١٠ـ "الحج إلى بيت الله الحرام"[٧] عز الدين فلوز[٨]. حج المؤلف سنة ١٣٦٠هـ، ثم زار المدينة المنورة، وتحدث عن تداعيات زيارة المسجد النبوي في نفسه.

١١-"في منزل الوحي"[٩] محمد حسين بن سالم هيكل[١٠] (١٣٠٥ـ ١٣٧٦هـ)، استضافته الجهات الرسمية في المدينة المنورة بعد حجته سنة ١٣٥٥هـ، لخمسة أيام في بيت الخريجي الذي

---

(١) الناشر المؤلف نفسه ١٤١٣هـ.

(٢) عالم وأديب سعودي، أصدر مجلة الدرعية، ورأس تحرير مجلة التوباد الأدبية، وله عدة مؤلفات في التفسير والحديث والأدب والثقافة. انظر الرحلة رقم/٩٠؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٦٠٧-٢٦٠٨)

(٣) الناشر :المؤلف نفسه، ط/١ ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٤) أديب سعودي، شغل منصب مدير إدارة التعليم في جدة، ثم عين كيلا لوزارة الحج، أصدر عدة كتب وقصص، وأسهم في تأسيس نادي مكة المكرمة الأدبي. انظر الرحلة رقم/ ٨٨ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٥٩٠)

(٥) الناشر :المؤلف نفسه، د.ت.

(٦) أديب وإعلامي سعودي، تولى رئاسة تحرير جريدة المدينة، وجريدة حراء، نشر عدداً من المقالات والكتب الاجتماعية والأدبية. انظر الرحلة رقم/ ٧١؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٥٩٠)

(٧) عناية وتقديم :مصطفى الفيلالي الناشر :المؤلف نفسه ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

(٨) أستاذ جامعي تونسي له كتابات عن العلاقات بين الإسلام والغرب، لم نجد معلومات تفصيلية عنه. انظر الرحلة رقم/ ٧٠؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢١٩١)

(٩) الناشر :دار المعارف بمصر. الطبعة الثامنة. القاهرة ١٩٨٦م.

(١٠) أديب وسياسي مصري، تولى رئاسة تحرير بعض الصحف، كما تولى وزارة المعارف مرات، ورئاسة وفد مصر في الأمم المتحدة، تعد روايته زينب أول رواية في الأدب العربي الحديث. انظر الرحلات إلى المدينة" ص: (١٩٦٧)

يستضاف فيه كبار الزوار، أمضى جل وقته متفكراً في المسجد النبوي ، وزار المعالم الأخرى، برفقة المؤرخ عبد القدوس الأنصاري، وكتابه هذا من أطول ما كتبه رحالة هذا العصر، لما فيه من الاستطرادات والتداخل بين الماضي التاريخي والواقع وتصوراته للمستقبل، يتمتع المؤلف بأسلوب أدبي مشوق.

١٢-"الحجاز في عام ١٣٥٦هـ"[١] لأحمد إبراهيم عيسى[٢]. زار المدينة بعد أن حج سنة ١٣٥٥هـ، وأمضى فيها سبعة أيام، قضاها بين المسجد النبوي، ومعالم المدينة ومدارسها، تضمنت رحلته معلومات خاطئة عن عدد من المعالم والأشخاص والأحداث.

١٣- "رحلات عبد الوهاب عزام"[٣] لعبد الوهاب بن محمد بن حسين بن سالم عزام[٤] (١٣١٢ـ ١٣٧٨هـ)، زار المدينة بعد أن حج سنة ١٣٥٦هـ، ونزل في بيت الضيافة، ومكث فيها أسبوعاً، غلبت عليه العاطفة الجياشة فشغلته عن التوسع في الوصف، فتحدث بإيجاز عن المسجد النبوي والمواقع الأخرى التي زارها.

١٤-"شهور في ديار العرب"[٥] مسعود عالم الندوي[٦] (١٣٢٩ـ١٣٧٣هـ) حج المؤلف سنة ١٣٦٩هـ، وزار المدينة المنورة، وأقام فيها اثنين وعشرين يوماً، والتقى بعدد كبير من الشيوخ والعلماء بينهم شخصيات عربية وإسلامية كانوا يزورون المدينة المنورة.

المجموعة الثانية: لرحالة زاروا المسجد النبوي قبل أن يطرأ عليه أية إصلاحات أو توسعات في العهد السعودي، فاقتصروا في وصفهم له على ما عاينوه فيه، من عمارة السلطان

---

(١) الناشر :المؤلف نفسه، مطبعة الاعتماد، القاهرة، د.ت.

(٢) لم نجد في المصادر المتاحة معلومات عن المؤلف.

(٣) الناشر :المؤلف نفسه، ط /٢، مطبعة الرسالة ١٣٧٠هـ- ١٩٥٠م.

(٤) أديب وأستاذ جامعي مصري، عين سفيراً لبلاده في السعودية والباكستان، وشارك في تأسيس جامعة الرياض، له مؤلفات كثيرة في الأدب والثقافة والرحلات، وترجم أشهر الأعمال الأدبية من الفارسية إلى العربية، منها دواوين محمد إقبال. انظر الرحلة رقم/٦٦ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢١٢٨)

(٥) ترجمة :د. سمير عبد الحميد إبراهيم .الناشر :الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٢٢هـ .

(٦) عالم وأديب وداعية هندي، عمل مع الشيخ أبي الحسن الندوي في الندوة، له مؤلفات في الفكر والثقافة الإسلامية والدعوة. انظر الرحلة رقم/٧٧؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٣١٨)

العثماني عبدالمجيد خان، وإصلاحات السلطان عبدالحميد ومن سبقهم، ومثل هذه الرحلات يمكن القول فيها: إنها امتداد للعهد العثماني الثاني، وإن جرت في هذا العهد.

وتضم هذه المجموعة الرحلات الآتية:

١-"لماذا أحببت ابن سعود"[١] للرحالة: محمد أمين التميمي[٢] (١٣٢٧-١٣٩٦هـ)، حج المؤلف سنة ١٣٤٥هـ، وزار المدينة المنورة في طريقه إلى مكة، وأقام فيها ثلاثة عشر يوماً؛ لازم فيها المسجد النبوي، وحضر بعض الدروس العلمية.

٢-"رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام"[٣] لسعد بن أحمد بن حماد الربيعة التميمي[٤] (....١٣٨٣هـ)، دخل المدينة في محرم من سنة ١٣٤٦؛ ومكث فيها أربعة أيام، كتب رحلته بأسلوب اليوميات.

٣-"سفر نامه حجاز"[٥] للرحالة الهندي: عبد الماجد الدريابادي[٦] (١٣١٠- ١٣٩٧هـ) زار المدينة سنة ١٣٤٧هـ وهو في طريقه إلى الحج، ومكث فيها أكثر من شهر، طوف خلاله في معالمها، وشهد آثار التحولات عليها، عرض بإيجاز لعمارة المسجد النبوي وتطورها عبر التاريخ، ولم يغفل الحديث عن جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها.

٤-"على الطائر الميمون"[٧] للرحالة المصري: مصطفى محمد الراعي[٨] (بعد١٣٤٩هـ) وصل المؤلف إلى المدينة سنة١٣٤٩هـ، وأمضى فيها أسبوعاً، زار خلالها معالمها، وأشار في

---

(١) الناشر:دارة الملك عبد العزيز بالرياض ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٢) كاتب فلسطيني، عمل مستشاراً في وزارة المعارف السعودية إلى أن تقاعد سنة ١٣٨٧هـ انظرالرحلة رقم: (٥٥) من "الرحلات إلى المدينة" ص:(١٧٦٦).

(٣) أعده للنشر حفيده سعود بن عبدالعزيز الربيعة، ونشرته دار الملك عبدالعزيز سنة ١٤٢٩ه. انظر الرحلة رقم/ ٥٤ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٧٥٨)

(٤) أحد أعيان مدينة الزبير في العراق، أنشأ في شبابه جمعية الشباب المسلمين ذات الصبغة الاجتماعية الدينية، كما أنشأ مكتبة الزبير الأهلية وتولى رئاستها. انظر الرحلة رقم/ ٥٤ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (١٧٥٨)

(٥) ترجمة :د. سمير عبد الحميد إبراهيم. تقديم: سيد سليمان الندوي. الناشر :المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.

(٦) عالم وأديب هندي، رأس تحرير واحدة من أكبر الصحف الهندية للمسلمين، وكان واحداً من أعلام الثقافة في الهند، ألف تفسيراً للقرآن الكريم بالأردية والإنكليزية، وأصدر عدداً من الكتب. انظر: الرحلات إلى المدينة" ص: (١٢١٦)

(٧) الناشر: المؤلف نفسه القاهرة د. ت.

(٨) يبدو من الإعلانات المنشورة في آخر كتابه أنه تاجر وأنه على جانب من الثقافة. انظر الرحلة رقم/ ٥٣ ؛من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٦٩٥)

رحلته إلى أنه حج سنة ١٣٢٨هـ، مجرياً بعض المقارنات بين مشاهداته في الرحلتين، رصد فيهما الاختلاف في العادات الاجتماعية في زيارة المسجد وخدمته.

٥-"الأنفاس النورانية"[١] لمحمد الطيب بن محمد المهدي بن أبي الفيض الكتاني[٢] حوالي (١٣٢٦ـ ١٤٢٧هـ)، زار المدينة المنورة بعد موسم حج سنة ١٣٥٠هـ وأمضى فيها أسبوعين؛ زار فيهما معالمها، واشتغل بلقاء العلماء وأخذ الإجازة منهم.

٦-"لمحة بصر على البلاد المقدسة"[٣] لمحمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن السائح[٤] (١٣١٠ـ ١٣٦٧هـ). زار المدينة، وأمضى فيها أسبوعين، اقتصر على ذكر بعض المشاهدات.

٧-"من نفحات الحرم"[٥] لعلي بن مصطفى بن أحمد الطنطاوي[٦] (١٣٢٧ـ١٤٢٠هـ) شارك المؤلف في عام ١٣٥٣هـ في رحلة استكشافية للطريق البري بين دمشق والمدينة بالسيارات، فوصلوا بعد ٢٠ يوماً من التيه والمعاناة، وأقاموا فيها عدة أيام، زار المؤلف خلالها المسجد النبوي، وأهم معالم المدينة الأخرى، اقتصر فيها على سرد أحداث من السيرة النبوية، وإسقاط واقع المسلمين عليها، يتميز عرضه بأسلوب أدبي رفيع، ممزوج بروح الدعابة.

٨-"الله أكبر" [٧] لعبد الكريم جرمانوس[٨] (١٣٠١- ١٣٩٩ هـ)، حج المؤلف سنة ١٣٥٤هـ، وزار المدينة المنورة بعد الموسم، ووصف الحجرة النبوية بشيء من التفصيل.

---

(١) مراجعة: محمد المهدي الكتاني، إعداد: عبد الله الكامل الكتاني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٣٠هـ.

(٢) عالم وواعظ متصوف، من أسرة الكتانية التي اشتهر منها علماء عدة، ولد بمدينة فاس بالمغرب، وتلقى العلم على يد والده وشيوخ بلده، وتصدر للوعظ والتدريس وإدارة الزاوية الكتانية. انظر الرحلة رقم: /٥٦ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (١٧٧٤)

(٣) طبعت الرحلة بتحقيق :د. محمد قزقزان .الناشر :لم يذكر. الرباط. ١٤١٦هـ ١٩٩٥م

(٤) السائح: عالم مغربي، اهتم إلى جانب العلوم الشرعية بالفلسفة والجغرافيا، وترأس وفد الحجيج المغربي سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م. انظر الرحلة رقم/ ٧٣؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٢١٤)

(٥) الناشر :دار المنارة، جدة ١٤٠٥هـ.

(٦) فقيه وأديب وقاض دمشقي، عمل في التعليم في سورية والعراق، ثم انتقل إلى القضاء، عرف بأسلوبه الأدبي البارع، وقدم برامج توجيهية في الإذاعة والتلفزيون، فطارت شهرته في البلاد العربية، ترك مؤلفات في الأدب والتراجم والثقافة وكتب مذكرات قيمة.انظر الرحلة رقم/٥٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (١٨٦٨)

(٧) الناشر: المؤلف نفسه د.ت.

(٨) جرمانوس: مستشرق مجري، قام برحلات علمية إلى البوسنة وتركيا، وتأثر بالروحانية الإسلامية، ودعي إلى الهند لتنظيم معهد الدراسات الإسلامية، وأقام فيها ثلاث سنوات أعلن فيها إسلامه، وتوالت مؤلفاته عن الآداب واللغات

٩ـ "الرحلة الحجازية الأولى"[١] إبراهيم عبد الله نياس[٢] (١٣٢٠ـ ١٣٩٥هـ)، زار المؤلف المدينة لأول مرة قبل موسم حج سنة ١٣٥٥هـ، ومكث فيها تسعة عشر يوماً؛ زار خلالها معالمها، والتقى بعدد من الشيوخ وتبادل معهم الإجازات.

١٠ـ "رحلتي إلى الحجاز: ٤٩ يوماً في الأراضي المقدسة"[٣] محمد صابر مرسي[٤]، حج المؤلف في موسم سنة ١٣٥٥هـ، وزار المدينة المنورة، ووقف على أبرز معالمها، ووصفها وصفاً عاماً، مستحضراً الأحداث التاريخية التي وقعت فيها.

١١ـ "الرحلة الفلسطينية إلى الديار الحجازية" [٥] لمحمد عزة دروزة[٦] (١٣٠٥ـ ١٤٠٤هـ) زار المؤلف المدينة بعد حج سنة ١٣٥٥هـ ضمن وفد من كبار الشخصيات الفلسطينية، وأمضى فيها خمسة أيام، زار خلالها المسجد النبوي ومعالم المدينة الأخرى، وقد لفت نظره حالة الفقر الشديدة المنتشرة آنذاك.

١٢ـ "في الأرض المقدسة بين مصر والحجاز"[٧] لإبراهيم محمد حبيب[٨] (بعد ١٣٥٦هـ) سافر إلى المدينة المنورة بعد أن حج سنة ١٣٥٦هـ، وزار المسجد النبوي وبعض معالمها الأخرى، غلب عليه بث مشاعره عن الوصف التفصيلي.

التركية والعربية، اختير عضوا في المجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد، وتعد مؤلفاته مرجعاً مهما لدقتها وموضوعيتها. انظر الرحلة رقم/٥٨ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٨٥٦)

(١) الناشر: مخطوطات الغرب الأفريقي. د.ت.

(٢) فقيه وداعية سنغالي، كان عضواً مؤسسا في رابطة العالم الإسلامي وهيئات إسلامية أخرى في عدد من البلاد الإسلامية، نشط في الدعوة في أفريقيا وأسس معهداً شرعياً في بلده، له عدة مؤلفات في الوعظ والتصوف والأدب، وله ديوان شعر في المديح النبوي. انظر الرحلة رقم/٦١ ؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (١٩٢٢)

(٣) نشرت الرحلة: سنه ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م.

(٤) لم نجد معلومات وافية عن المؤلف. ويبدو من سياق الرحلة أنه مدرس مصري لديه معلومات جيدة عن السيرة النبوية والتاريخ انظر الرحلة رقم/٦٢ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (١٩٣٤)

(٥) طبعت بعناية: محي الدين طيلوني .الناشر :البيئة للطباعة والنشر. دمشق ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

(٦) مفكر فلسطيني، كان متبنيا الاتجاه القومي المناهض للتتريك في العهد العثماني، ثم مقاومة الاحتلال الأوربي لبلاد الشام، سجن عدة مرات، وانتقل إلى دمشق بعد تقسيم فلسطين، ترك نحو خمسين مؤلفاً في قضايا القومية العربية والفلسطينية والتاريخ. انظر الرحلة رقم/ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (١٩٥٧)

(٧) الناشر :المؤلف نفسه، د.ت. راجعه ووقف على مراجعته مكتبة جامعة القلم، القاهرة.

(٨) إداري وقاض ونائب في المجلس النيابي، لم نجد في المصادر المتاحة معلومات تفصيلية عنه انظر الرحلة رقم/٦٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢١٣٦)

١٣ـ "الرحلة العينية"[١] لماء العينين بن العتيق[٢] (١٣٠٧ـ ١٣٧٦هـ) حج سنة ١٣٥٧هـ، وزار المدينة، ومكث فيها ثمانية أيام، زار المعالم برفقه شيخه الذي سماه: "مربيه ربه"، وذكر المؤلف على لسان شيخه وصفه للمسجد النبوي.

١٤ـ "الأيام المبرورة في البقاع المقدسة"[٣] لمحمد لطفي بن الشيخ جمعة بن أبي الخير الإسكندري[٤] (١٣٠١ـ ١٣٧٢هـ)، زار المدينة بعد أن حج سنة ١٣٥٩هـ، ومكث فيها اثني عشر يوماً، زار فيها معالمها، وقد غلبت عليه مشاعره، واقتصر في مؤلفه على استحضار مشاهد من السيرة النبوية والتاريخية في معظم المواقف والمعالم.

١٥-"قرة العين في الرحلة إلى الحرمين"[٥] لعبد الله بن علي بن الشيخ أبي بكر[٦] (بعد ١٣٨٢هـ) زار المدينة سنة ١٣٨٢هـ، ومكث فيها تسعة أيام؛ أمضاها في المسجد النبوي وزيارة معالمها الأخرى، وجعل من كتابه مرجعاً تعليمياً لأحداث السيرة النبوية المرتبطة بتلك المعالم.

١٦-"من وحي الحرمين"[٧] د. مصطفى الديواني[٨]، زار المؤلف المدينة المنورة عدة مرات، منها عام ١٣٩٢هـ، زار فيها المعالم الرئيسية للمدينة، وعرض الأحداث التي ترتبط بها من السيرة النبوية.

المجموعة الثالثة: وهي خاصة بالرحلات التي تحدثت عن التوسعات والإصلاحات في هذا العصر، منذ عهد الملك عبد العزيز رحمه الله وإلى اليوم.

---

(١) طبعت بتحقيق : د. محمد الظريف الناشر :دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ٢٠٠٤م .

(٢) عالم مغربي، عمل بالوعظ والتدريس وكتب بعض الرسائل. انظر الرحلة رقم/٦٨؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢١٥٥)

(٣) طبعت بمراجعة: رابح لطفي جمعة.الناشر :عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٩-١٩٩٨م .

(٤) أديب ومحام مصري، وعضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، أصدر عددا من الكتب، كما ترجم عددا من الكتب الأدبية والسياسية، توفي بالقاهرة. انظر الرحلة رقم/ ٦٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢١٥٥)

(٥) الناشر :المؤلف نفسه، مطبعة محمد علي صبح، القاهرة، د.ت

(٦) لا توجد معلومات تفصيلية عن المؤلف، وذكر في الغلاف الداخلي للكتاب أنه مدير مدرسة النجاح الإسلامية في جيبوتي. ويستنتج مما ورد في كتابه أنه متفقه ملم بالأحاديث والسيرة النبوية. انظر الرحلة رقم/٨٠؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٤١٧)

(٧) الناشر :دار الشعب، القاهرة، د.ت. انظر الرحلة رقم/٨٤.

(٨) طبيب مصري، لم نجد تفصيلات عن حياته في المصادر المتاحة. انظر الرحلة رقم/٨٤؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٤٧٢)

١-"الرحلة إلى المدينة المنورة"[١] للرحالة الدمشقي الشيخ: محمود بن أحمد ياسين[٢] (١٣٠٧-١٣٦٧هـ) زار المدينة عام ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م ومكثت فيها خمسة عشر يوماً، سجل أحداث الرحلة بأسلوب اليوميات، ورصد الحركة العلمية في المدينة، ورصد تحسن حالة المسجد الذي سبق أن تشرف بزيارته قبل بضعة أعوام.

٢-"رحلة العمر"[٣] محمد سويد[٤] (١٣٥٢-١٤٣٤هـ)، زار المدينة، ومكث فيها يومين، اقتصر في زيارته للمسجد النبوي على بث مشاعره، وإعجابه بالتطور العمراني الكبير الذي حدث في المسجد النبوي في السنوات الأخيرة.

٣-"مشاهداتي في الحجاز"[٥] عباس متولي حمادة.[٦] (بعد عام ١٣٨٦هـ) زار المدينة بعد موسم حج سنة ١٣٥٤هـ، ومكث فيها أسبوعاً، ووصفها وصفاً جيداً، ومما لفت نظره سوء الحالة الاقتصادية، معللاً السبب في انقطاع واردات أوقاف الحرمين الشريفين لأهل الحجاز من مصر برهة من الزمن ثم عاودت المسير، بعد استتباب الأمن.

٤- "حاج في الجزيرة العربية"[٧] هاري سانت جون بريدجر فلبي، أو الحاج: عبد الله فلبي[٨] (١٣٠٢-١٣٧٩هـ) زار المدينة المنورة لأول مرة في محرم ١٣٥٠هـ، سجل معلومات قيمة عن مختلف الجوانب المتعلقة بالمدينة، كما تحدث عن الإصلاحات المصرية للمسجد النبوي سنة ١٣٥٥هـ، يعد ما كتبه مرجعا مهما عن مختلف جوانب الحياة في المدينة.

---

(١) طبعت بتحقيق: مأمون محمود ياسين الناشر دار الفكر، دمشق ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

(٢) فقيه وعالم دمشقي، عمل في المحاكم، وأسهم في تأسيس عدد من الجمعيات الشرعية والأدبية، وله عدد من المؤلفات في الحديث والفقه والأدب. انظر الرحلة رقم/٣٥ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (١١٤٧)

(٣) الناشر :المؤلف نفسه. انظر الرحلة رقم/ ٨٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٦٠٠)

(٤) فقيه وقاض شرعي ومفتي، ولد في بلدة كفر حمام في لبنان، عمل مستشارا ونائبا لرئيس المحاكم الشرعية في لبنان، وفي آخر أيامه كان مفتيا لمنطقة حاصبيا ومرجعيون في لبنان. انظر الرحلة رقم/ ٨٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٦٠٠)

(٥) الناشر :المؤلف نفسه، ط مطبعة المستقبل ١٣٣٦هـ .

(٦) كان أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، له عدة مؤلفات أهمها كتاب: السنة النبوية ومكانتها في التشريع، وكتاب الرحلة هذا. انظر الرحلة رقم/٦٠ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (١٨٩)

(٧) ترجمة: عبد القادر محمود عبد الله، :الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(٨) رجل مخابرات وسياسي انجليزي، قام برحلات استكشافية اجتاز فيها الجزيرة العربية، تأثر بالروح العربية والإسلامية فأعلن إسلامه سنة ١٣٥٠-١٩٣٠م. وتزوج امرأة مسلمة، توفي في بيروت ودفن فيها، ترك مؤلفات كثيرة منها ١٥مؤلفا عن مذكراته ورحلاته. انظر الرحلة رقم: ٥٧ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (١٧٩٤)

٥-"نفحات الحج والزيارة- رحلة متولي نجيب"[١] متولي عيد صابر نجيب[٢] (١٣١٢-١٣٨٣هـ) حج المؤلف سنة ١٣٦٧هـ، وزار المدينة المنورة، وأمضى فيها أسبوعاً، وصف فيه المسجد النبوي ومعالم المدينة المنورة الرئيسية؛ بإسهاب وتدفق عاطفي، مستحضراً مشاهد من التاريخ ترتبط بتلك المعالم، بأسلوب أدبي سلس.

٦- "الحج أسراره ومناسكه"[٣] أحمد حسين[٤] (بعد ١٣٦٧هـ) حج المؤلف مرتين الأولى سنة ١٣٥٣هـ، والثانية سنة ١٣٦٧هـ. وزار خلالهما المدينة المنورة، وكتب كتابه هذا عن رحلته الثانية، مشيداً بالتطور الذي حدث في المدة بينهما، ووصف المسجد النبوي ومعالمه بشيء من التفصيل.

٧- "صور من الحجاز"[٥] محمد كامل عبد الرحمن حته[٦] (١٤٠٦-١٣٣١-هـ) زار المدينة المنورة بعد أن حج سنة ١٣٧١هـ، وأمضى فيها أربعة أيام، وكتب عنها مستوحيا التاريخ، ومستحضرا مشاهد من الأحداث المرتبطة بها.

٨- "رحلتي إلى البقاع المقدسة"[٧] باعزيز بن عمر بازي[٨] (١٣٢٤-١٣٩٨هـ) زار المدينة سنة ١٣٨٦هـ، ومكث فيها عشرة أيام، زار خلالها معالمها الرئيسية، قدم نقداً موضوعياً لجوانب النقص في خدمة الزائرين وأسباب الازدحام آنذاك.

---

(١) الناشر :المؤلف نفسه. القاهرة ١٩٥٠م.

(٢) محام مصري، ولد في القاهرة، تخرج من مدرسة الحقوق وعمل في المحاماة، قام برحلات إلى بريطانيا ولبنان وسورية، لا توجد تفصيلات أخرى عن حياته. انظر الرحلة رقم: ٧٦ ؛ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٢٥٠)

(٣) الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.

(٤) محام مصري له عناية بالتاريخ والسيرة النبوية، لم نجد معلومات وافية عنه.

(٥) الناشر :المؤلف نفسه، مطبعة فؤاد المنياوي، القاهرة، ١٤٥٣م.

(٦) كاتب وشاعر مصري، أصدر عددا من الدواوين والقصص والدراسات الأدبية وأدب الرحلات، ويغلب على كتاباته الطابع الإسلامي. انظر: الرحلة رقم/٧٨؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٣٧٥)

(٧) الناشر :دار ثالغ للنشر، الجزائر، د.ت.

(٨) عالم وصحفي جزائري، اسمه الحقيقي: عبد العزيز بازي ، كان من دعاة الثورة الجزائرية بوجهها الإسلامي، كتب عشرات المقالات في الدعوة إلى الإصلاح والتربية والاجتماع والأدب.انظر الرحلة رقم/٨٥؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٠٦)

٩-"خواطر حاج"[١] الطيب بن عيسى[٢] (١٣٠٢- ١٣٧٧هـ) حج المؤلف مرتين، سنة ١٣٤٥هـ، وسنة ١٣٧٨هـ، ووصف المسجد النبوي، وتاريخ تطوير الروضة الشريفة، والتوسعة السعودية الأولى، وعدد من المعالم الأخرى.

١٠ -"من مكة المكرمة إلى الرياض"[٣] علي رضا التونسي[٤] (بعد عام ١٣٨١هـ) زار المدينة سنة ١٣٨٣هـ، وصف المسجد النبوي ومعالمه الرئيسية وتوسعاته بإيجاز، وتحدث عن معالم المدينة ومساجدها الأثرية، وأهم أسواقها.

١١ -"على طريق الهجرة"[٥] عاتق بن غيث البلادي [٦] (١٣٥٢- ١٤١٣هـ) تتبع المؤلف في رحلته طريق الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، حتى وصل إلى المدينة في السابع والعشرين من شهر محرم سنة ١٣٩٣هـ فمكث فيها أربعة عشر يوما؛ تعرض لشيء من معالم المسجد النبوي الشريف، وطاف في كثير من معالم المدينة الأخرى الطبيعية والعمرانية، وسجل ملاحظات مهمة عنها بأسلوب اليوميات، لذا تعد رحلته من أغنى الرحلات بأسماء المعالم وتحديد مواقعها من أفواه البدو القاطنين حولها.

١٢ -"رحلاتي الحجازية"[٧] أبو بكر القادري[٨] (١٣٣١- ١٤٣٣ هـ) زار المدينة ثلاث مرات، الأولى سنة ١٣٧٦هـ، والثانية سنة ١٤٠٦ هـ ، والثالثة سنة ١٤١٤هـ، ووصف باختصار

---

(١) الناشر :المؤلف نفسه، مطبعة المعهد الجديد، تونس، د.ت.

(٢) صحفي تونسي، أصدر جريدة المشير؛ فأغلقتها سلطة الاحتلال الفرنسي بعد مدة، فأصدر جريدة الوزير التي استمرت إلى عام ١٣٧٥هـ سجن على إثرها، نشط في العمل السياسي، ناضل حتى نالت تونس استقلالها، فأعاد فتح جريدته باسم المشير. انظر الرحلة رقم: ٧٩ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٤٠٤)

(٣) الناشر :المؤلف نفسه، المطبعة التعاونية بدمشق ١٣٨١هـ - ١٩٦٤م.

(٤) لم نجد في المصادر المتاحة معلومات عنه. انظر الرحلة رقم/٨٢؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٤٦١)

(٥) الناشر :دار مكة للنشر. مكة المكرمة د. ت.

(٦) جغرافي ونسابة سعودي. قام برحلات عديدة بسيارته لدراسة المعالم الجغرافية وتتبع منازل القبائل وكتب عنها دراسات وأخرج معاجم، وتعد مؤلفاته مرجعاً أساسياً في موضوعها. انظر الرحلة رقم/٨٧؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٥١)

(٧) الناشر: المؤلف نفسه ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

(٨) عالم مغربي، انخرط في العمل الوطني ومقاومة الاحتلال الفرنسي عن طريق نشر التعليم الإسلامي والعربي، اعتقل عدة مرات وشارك في اللجان والندوات والمؤتمرات التي تطالب بالاستقلال، وواصل نشاطه الديني والسياسي بعد الاستقلال،

زياراته للمسجد النبوي ومسجد قباء، ومشاعره الفياضة، وعرض بإيجاز أيضاً لحالة المدينة البسيطة آنئذ، وأشاد بالتوسعة التي بدأها الملك فهد رحمه الله، وأضاف إليها ما رآه في رحلته الثالثة بعد إنجاز التوسعة، وأفرد فقرة للحديث عن التطور الكبير الذي شهدته المدينة المنورة.

وله مؤلفات في الثقافة الإسلامية والدعوة والتوعية وفي التراجم وأدب الرحلات. انظر الرحلة رقم: ٩١ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٦٤٣)

المطلب الأول: ما استدركه رحالة هذا العصر على من قبلهم في مبنى التوسعة العثمانية

تمهيد: بدأ العصر السعودي الحالي في المدينة المنورة عام ١٣٤٤ هـ، لكن المسجد النبوي الشريف ظل إلى عام ١٣٧٥هـ على ما كان عليه من العمارة التي أنشئت في العصر العثماني، واقتصرت تلك الفترة على أعمال الصيانة وإجراء الترميمات كلما لزم الأمر.

وقبل الشروع في الحديث عن الإصلاحات والترميمات التي جرت في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله، ومن ثم التوسعة التي أمر بها جلالته عام ١٣٦٨هـ، لابد من الوقوف على مطلب مهم سبق أن أشرنا إليه في التمهيد، حين قمنا بتقسيم الرحلات الواردة في هذا العصر إلى ثلاث مجموعات، ذكرنا فيها أن رحلات المجموعة الثانية التي جرت ما بين (١٣٤٤ – و ١٣٧٥ هـ) ما هي إلا امتداد لما كان عليه المسجد في العصر العثماني

لذلك لن تجد شيئاً جديداً فيما يتعلق ببناء المسجد والحجرة في وصف الرحالة الذين وفدوا إلى المدينة المنورة في تلك الفترة من صدر العهد السعودي، سوى بعض الإيضاحات عن معالمه التي لم يتطرق إليها رحالة العهد العثماني بالشكل الوافي، والعادات والتقاليد المتبعة في آلية خدمته من قبل القائمين عليه؛ حيث شهد تغيراً تدريجياً فيها، شمل الأشخاص والآليات والمسميات، وسنرى كيف سينحسر دور الأغوات الذين كانوا يقومون على خدمته تدريجياً، وكيف سيتقلص نفوذ شيخ الحرم وباشي الحجرة والنقيب والأئمة المتعددين ووكلائهم والخطباء الكثر الذين كانوا يتعاقبون عليه، إلى أن تم استبدالهم بشكل تام بقرار من جلالة الملك عبدالعزيز- رحمه الله- بموظفين متعددي التخصصات كل حسب ما أوكل إليه.

وسنشهد تغيراً في العادات المتعلقة بتعدد الجماعات، فقد اجتمع الناس على إمام واحد، ومنع أذان الجوقة الجماعي والابتهالات والصلوات التي كانت تقام قبله وبعده، لرد الناس إلى ما كان عليه الصدر الأول من هذه الأمة، وإعادة أذان الفجر الأول الذي أطلق عليه الرحالة أذان التهجد قبل الفجر الصادق بنحو ساعة، وإليك تفصيل ذلك مستعرضين ما ذكره الرحالة في كل شأن من الشؤون السابقة وغيرها.

فمن الجديد الذي أورده رحالة هذا العصر قياس مقادير الزيادة في العمارات المتعاقبة للمسجد النبوي بالمتر المربع: قال عباس متولي حمادة الذي دخل المدينة سنة ١٣٥٤هـ: "بلغت مساحة المسجد مع الزيادات التي طرأت عليه ١٠٨٠٠م٢، وكان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ١٨٥م٢، فزاد عليه عمر ١٤٥٠م٢، ثم زاد عثمان ٨٠٠م٢، ثم الوليد بن عبدالملك ١٩٠٠م٢، ثم زاد المهدي ٣٠٤٠م٢، ثم زاد السلطان قايتباي ٧٠م٢، ثم زاد السلطان عبدالمجيد ١٢٠٠م٢"[١]

وتحدث فلبي عن الأحجار التي بني بها المسجد النبوي، وذكر أن حجارته وردية لطيفة بلورية التكوين، قطعت من سلسلة جبال الجماوات المجاورة للضفة اليسرى من وادي العقيق إلى الجنوب الغربي من المدينة.

وتحدث متولي عيد صابر عن الصحن ومقدار سعته: فقال: "تبلغ مساحته ثلث مساحة المسجد، وهو الذي زاده جعفر بن سليمان والي المدينة في عهد الخليفة المهدي. وذكر أن فيه حمام يشبه تماماً ذلك الذي بمكة، وبهذا الصحن أعمدة كتب على كل عمود اسم صحابي أو واحد من ملوك الدولتين العباسية والأموية، وبناحيتيه الشرقية والغربية مستطيلان مفروشان بالسجاد، وهما اليوم مصليان مسقوفان للنساء، وبينهما الحصباء -الصحن- وبين الصحن والمصليين وبين ذلك الحاجز الذي ذكرنا أنه على ارتفاع متر مصلى الأغوات".[٢] وقال عباس متولي حمادة: "والمسجد مرصوف كله بالرخام الأبيض عدا مساحة قدرها ٢٢٠م٢ فرشت بالحصباء"[٣].

وانفرد إبراهيم عبدالله نياس بذكر علامة تشير إلى المحراب الذي كان إلى بيت المقدس، فقال في معرض حديثه عن مسجد القبلتين: "إن في المسجد النبوي الشريف ـــ أيضاً ـ

(١) انظر: الرحلات إلى المدينة" ٤/١٩٠٠.

(٢) السابق ٥/٢٢٥٠.

(٣) السابق ٤/١٩٠٠.

علامة المحراب الذي كان إلى بيت المقدس".[1] ولم يحدد مكان هذه العلامة، ولم يذكرها أحد من الرحالة قبله.

وفي معرض حديثه عن المنابر التي صنعت للمسجد النبوي قال الشيخ محمود ياسين: "وعمل بدلاً منه الملك قايتباي منبراً نقل بعد إلى مسجد قباء، ولا يزال به حتى الآن بعد أن استبدلوا به المنبر الحالي الذي أرسل هدية من السلطان العثماني مراد الثالث سنة ٩٩٨هـ"[2] لكن الرحالة سعد الربيعة التميمي الذي دخل المسجد النبوي قبله سنة ١٣٤٦هـ كان قد ذكر أنه شاهد منبر قايتباي فيه، ولم يكن بعد قد تم نقله إلى مسجد قباء فقال: "ورأيت في وسط الحرم منبراً من المرمر الملون المعشق بالذهب، وهو هدية من قايتباي الغوري سلطان مصر كما هو مكتوب عليه، وذلك سنة ٨٨٢هـ"[3]. وهذا الكلام يتناقض مع ما هو معلوم من أن المنبر الذي أرسله السلطان مراد قد وضع مكان منبر قايتباي سنة ٩٩٨هـ.

وظهرت في نهاية العصر السابق ما يعرف بمقصورة المؤذنين (المكبرية)، واستبدل الأذان من على المآذن إلى الأذان من داخل المسجد بعد أن أضيء المسجد بالكهرباء، وتحدث الرحالة متولي عيد صابر عن المكبرية فقال: "وأمام المنبر مقصورة المبلغين، بين نهاية الروضة وصحن المسجد المسقوف؛ وهي مكان مرتفع من الرخام يصعد إليه بسلالم؛ وبه جهاز الميكروفون، ويرتكز مبنى المكبرية على ٨ أعمدة من الرخام، اثنان أبيضان، و٦ حمراء".[4]. وذكر محمود ياسين أنه صلى تحتها.[5]

واختلف الرحالة في عدد أساطين المسجد النبوي، ففي حين ذكر غالبهم أنها كانت ٣٢٧ أسطوانة، قال عباس متولي حمادة: "إنها ٣٣٥ عدا القواطع الملصقة بجدران المسجد

(١) السابق ١٩٢٩/٤

(٢) السابق ١١٦٥/٢.

(٣) السابق ١٧٦١/٤.

(٤) السابق ٢٢٧٣/٥.

(٥) السابق ١١٥٦/٣.

والحجرة، وأن كل قبة من قباب المسجد تقوم على أربعة أعمدة من الرخام الجميل مموهة من أعلاها إلى أسفلها بماء الذهب"[1]. وذكر سعد الربيعة التميمي أنها ٣٠٥ أسطوانات[2].

وعلى الرغم من حفاظ المسجد على منائره الخمس حتى هذا التاريخ؛ إلا أننا نجد ظهور أسماء جديدة سميت بها بعض تلك المنارات، فقد عددها الشيخ محمود ياسين قائلاً: "المنارة الرئيسية، والمنارة السليمانية، والمنارة الشكيلية، ومنارة باب الرحمة، ومنارة باب السلام"[3]. وأغرب محمد لطفي جمعة، وماء العينين بن العتيق فذكرا أنها أربع مآذن فقط. قال ابن العتيق: "أما المنارات؛ فمنارة باب السلام، ويقال لها: الرئيسية، ومنارة باب الرحمة، ومنارة عبد المجيد؛ وهذه المنارة أكبر منارة رأيتها، إلا منارة واحدة في مراكش تعرف باسم الكتبية، ويتلو منارة عبدالمجيد المنارة السليماني، ة نسبة إلى السلطان سليم؛ فهي أربعة"[4]. ويظهر من كلامه وهم في عدد المآذن، ووهم في أسمائها، ذلك أن المنارة الرئيسية تطلق على المنارة التي في الزاوية الجنوبية الشرقية، الواقعة عند المقصورة الشريفة، وليس على منارة باب السلام.

وذكر عبدالكريم جرمانوس أن ثلاثاً من تلك المآذن الخمسة قد بناها سلاطين الأتراك سليمان وعبد المجيد وهي: منارات ملساء رفيعة وبسيطة، أما المئذنة الأساسية فقد بنيت على الطريقة المصرية، والمئذنة الخامسة كانت شبه منفصلة وتقع بالقرب من باب الرحمة"[5].

---

(١) السابق ١٩٠١/٥.

(٢) السابق ١٧٦١/٤.

(٣) السابق ١١٦٥/٣.

(٤) السابق ٢١٥١/٥.

(٥) السابق ١٨٦١/٤.

المطلب الثاني: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر السعودي الحالي في المسجد النبوي.

شهد هذا العهد تغيرات كبيرة على جميع الصعد، فقد عاد الناس في الحرمين الشريفين إلى الصلاة خلف إمام واحد لأول بعد عدة قرون أحدثت فيها بدعة تعدد الجماعات، على الهيئة التي سبق شرحها في موطنه من العهود السابقة، الأمر الذي أدخل السرور على الأمة، ومنهم الرحالة الذين أعربوا عن فرحتهم باجتماع الناس على إمام واحد.[1] وأبطلت عادة الجوقة في الأذان، قال الشيخ محمود ياسين: "ومن العادات المستحسنة أن المؤذنين يؤذنون في جميع المآذن فرادى، ولم يعودوا يؤذنون أذان الجوقة، ولا يزيد المؤذن على آخر الأذان شيئاً"[2]. ثم تحدث عن عودة الأذان الأول قبل الفجر، وسماه: "أذان التهجد" وقال: "وفي ذلك الوقت تفتح أبواب الحرم المدني وجموع الناس مجتمعون أمام الأبواب، وحين يفتح يسرعون بالدخول ليحجز من سبق منهم مكاناً في المصلى النبوي، أو على الأقل في الروضة، وبعد ساعة أو أقل يؤذن الفجر"[3].

وقال: "في غير مواسم الحج يقف الإمام في المحراب النبوي، ويصلي المسلمون خلفه في الروضة، أما في المواسم وحين يتضاعف عدد المصلين يتقدم إلى المحراب العثماني، وتملأ صفوف المصلين جميع أنحاء المسجد بطوله وعرضه"[4].

ويقارن مصطفى الراعي بين لباس الخطيب في العهد العثماني؛ وبين هيئته اليوم فيقول: "كان الخطيب فيما مضى يلبس عمامة كبيرة أشبه بعمامة الخلفاء العباسيين، ويلبس فوقها شالاً كشميرياً ... وإني أرى الخطيب اليوم؛ وهو يرقى المنبر بلباسه العادي النجدي، وقد ارتاحت إليه نفسي لأنه كان يتكلم بتؤدة ورزانة عن التمسك بالسنة والتحذير من البدع"[5].

---

(١) انظر الرحلة رقم/٣٥ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١١٧٠-١١٧١)

(٢) انظر الرحلة رقم/٣٥ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١١٧٠-١١٧١)

(٣) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٧٤)

(٤) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٧٥)

(٥) انظر الرحلة رقم/٥٣ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٧١٣)

ومن خطأ ما ادعاه عدد من الرحالة أن الزائر يرى القبور الشريفة من خلال شبكة من قضبان الفضة[١]. وقال عبدالكريم جرمانوس: "لا يرى تلك القبور إلا خدم المسجد لأنهم لم يشاؤوا أن يحيطوا المكان بالسرية التامة، فأوجدوا في الجزء الجنوبي من المقام ثلاث فتحات صغيرة جداً، وقد قادني مرشدي يحيى إلى هذه الفتحات، حيث رأيت عبر الفتحة الأولى في مقابلها قبر الرسول الكريم، وإلى جانبه قبر أبي بكر الصديق، ثم عمر رضي الله عنهما"[٢]. وادعى عبدالله بن أبي بكر في رحلته "قرة العين: "أنه يرى إلى يمينه قبر خليفتيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما"[٣].

وقد كذب الطنطاوي هذه الدعاوي وغيرها وقال: "والقبر الشريف تحت الحجرة لا يرى، والصورة المتداولة التي يعلقها الناس في البيوت والحوانيت ليست صورة القبر"[٤].

وتحدث محمود ياسين عن ستائر الحجرة وقال: " إن ستائر الحجرة "كانت في أثناء زيارتي الأولى مهلهلة ممزقة، فإذا بها اليوم جديدة لامعة حيث تقدم بعض أغنياء الهند فوضعوا لها هذه الستائر اللائقة فجزاهم الله خيراً"[٥].

ويقارن مصطفى الراعي بين رحلتيه، رحلته هذه؛ و رحلته الأولى التي جرت في العهد العثماني، فيتحسر على تلك الأيام، ويذكر أنه كان هناك الكثير من الدرر والتحف في المواجهة الشريفة؛ كالكوكب الدري وغيره؛ ثم راح يسدد اللعنات على هذه الحرب العالمية لأنها كانت سبباً في ضياع تلك التحف القيمة والهدايا الثمينة، التي كان عظماء المسلمين يهبونها إلى القبر الشريف، حينها كان منظر الحجرة مبهراً، الجواهر الثمينة الكبيرة وشماعات الذهب والثريات المرصعة وأنوار الحرم الباهرة، أما الآن فلا بسط ولا طنافس ولا أنوار كافية.[٦]

---

(١) انظر الرحلة رقم/ ٦٣؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٩٦٠)

(٢) انظر الرحلة رقم/٥٨ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٨٦٤-١٨٦٥)

(٣)انظر الرحلة رقم/٨٠؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٤٣٠)

(٤) انظر الرحلة رقم/٥٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص:(١٨٨١)

(٥) انظر الرحلة رقم/٣٥ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١١٦٧-١١٦٨)

(٦) انظر الرحلة رقم/٥٣ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٧١٤)

وتحدث عدد من الرحالة عن مشاهداتهم لزيارة الناس للقبور الشريفة، وما يحدث عندها من المخالفات الشرعية، والتصرفات المخلة بالأدب.

وشكا عدد من الرحالة الذين وقفوا على أحوال المسجد من الحالة البائسة التي وصل إليها بعيد العهد الهاشمي، قال فلبي: "وفي السنوات السابقة كان المسجد قد تحول إلى حالة من الخراب الشديد نتيجة الإهمال وقلة المال لصيانته"[١].

كما اشتكى الرحالة عبد الماجد الدريابادي من سوء فرش المسجد وأنه من النوع العادي جداً، والذي لا يليق بأعظم المساجد[٢].

وتحدث عدد من الرحالة عن مظاهر الفقر وانتشار ظاهرة التسول في المسجد النبوي وما حوله، قال محمد عزة دروزة: "ينتشر صبيانهم حول المسجد ينشدون الأناشيد بصوت حنون؛ ويلتمسون الصدقات"[٣]. وقال الشيخ علي الطنطاوي: "وجدت السائلين يملؤون المسجد"[٤].

وتحدث إبراهيم نياس عن الكهرباء في المسجد النبوي فقال: "وللحرم الشريف معمل خاص بالكهرباء"[٥]. واشتكى الدريابادي من وجود الخلل في المحول أو فيمن يقوم على تشغيله وقال: "فكثيراً ما تنقطع الكهرباء، فإذا أضيئت المصابيح كلها ظلت ترتعش، وكثيراً ما يؤذن المؤذنون لصلاة التهجد، ويتجمهر المصلون على أبواب المسجد، لكن لا تفتح الأبواب بسبب انقطاع الكهرباء"[٦].

واشتكى الدريابادي أيضاً من المرافق المخصصة للوضوء، فقال: "أمر مؤلم أكثر من سوء نظام الإنارة وفرش المسجد، فلا تجد على أبواب المسجد ما تجده في مساجد الهند الكبرى من أحواض للوضوء، يوجد هنا خارج الأبواب صنابير مياه قليلة جداً لا تكفي هذه الأعداد الكبيرة من الناس، وإذا حدث أن كان فيها ماء فلا تنزل إلا بقدر خيط رفيع؛ وغالباً

---

(١) انظر الرحلة رقم: ٥٧ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (١٨١١)

(٢) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٧٤)

(٣) انظر الرحلة رقم/ ٦٣؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٩٦١)

(٤) انظر الرحلة رقم/٥٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص:(١٨٨١)

(٥) انظر الرحلة رقم/٦١ ؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٩٣٢)

(٦) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٩١)

ما تكون خالية من أي قطرة ماء، ناهيك عن التدافع بين هذا الزحام والسقوط، فمن يتمكن من الوضوء يعتبر نفسه محظوظاً ... أما أماكن قضاء الحاجة فهي مثلها أيضاً بحاجة إلى تنظيم، وقليل من الاهتمام دون الحاجة إلى نفقات باهظة"[١].

وكان بقرب باب الرحمة ٤ أحواض، فيها ٧٦ حنفية، وعلى الجهة اليمنى ١٩ مرحاضاً، ومثلها في الجهة الأخرى"[٢]. وهذه الحنفيات والمراحيض غير كافية في مواسم الزيارة، مما حمل بعض الرحالة إلى أن يأتيها ليلاً، ثم أبدى اقتراحه "بزيادة عددها أضعافاً لراحة الزائرين؛ بنزع ملكية ما حوله من المباني والدكاكين، ولتوسيع الطرق المحيطة بالمسجد"[٣]. وقد استجابت الحكومة لهذه النداءات، وسارعت إلى عدد من الإصلاحات، ثم تكللت بتوسعة الملك عبد العزيز التي سيأتي الحديث عنها. قال محمد كامل حته: "وقد علمت أن الأمير سعود بن عبد العزيز في زيارته للمدينة بعد موسم الحج، تعهد بتنفيذ برنامج عمراني واجتماعي للنهوض ببعض مرافقها"[٤]. وذكر عباس متولي حمادة أنه قرأ في الصحف المصرية بعد عودته خبراً ساراً "يملأ النفس غبطة وفرحاً، وهو الاتفاق الذي تم بين حكومة الحجاز ومصر على إرسال أوقاف الحرمين والكسوة وغيرهما، وسترسل إن شاء الله هذه الأوقاف هذا العام؛ وستوزع على سكان الحرمين لتخفيف الفقر والبؤس بعد أن انقطعت أعواماً، كثيرة"[٥].

وقد تغير حال المسجد عما كان عليه، وحظي بعناية خاصة من كل ولاة الأمر في هذا العصر الزاهر، وشهد تطورات نوعية قفزت به مراحل متقدمة لم يعهد مثلها في التاريخ، وهذا ما سوف نبينه في المطلب القادم.

---

(١)انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٩١)

(٢) انظر الرحلة رقم/٧٨؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٣٨٢-٢٣٨٣)

(٣) انظر الرحلة رقم/٧٨؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٣٨٢-٢٣٨٣)

(٤) انظر الرحلة رقم/٧٨؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٤٠١)

(٥) انظر الرحلة رقم/ ٦٠من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٩١٨)

المطلب الثالث: عمارة المسجد النبوي الشريف في العصر السعودي الحالي.

حظي المسجد النبوي الشريف في هذا العصر باهتمام خاص من قبل ولاة الأمر الذين تعاقبوا على حكم المملكة العربية السعودية، فقاموا إلى جانب المتابعة المستمرة لشؤونه؛ بعدد من التوسعات الكبرى التي فاقت جميع التصورات، فالزيادات التي أضيفت إليه نافت على جميع التوسعات عبر التاريخ أضعافاً مضاعفة.

وكان قد جرى للمسجد النبوي في هذا العصر قبل التوسعة السعودية الأولى عدد من الإصلاحات، منها: إصلاح أعمدة الجهة الشمالية وجدرانها عام ١٣٤٨هـ، وإصلاح خلل عدد من الأعمدة في الجهة الشرقية والغربية عام ١٣٥٠هـ.

وفي عام ١٣٥٣هـ تقدمت وزارة الأوقاف المصرية بطلب إنفاق ما تجمع لديها من مبالغ كبيرة من ريع أوقاف الحرمين الشريفين في مصر لصرفها على الترميمات التي يحتاج إليها المسجد النبوي، فرحبت الحكومة السعودية بذلك، فحضرت مجموعة من المهندسين والفنيين المصريين وقاموا بترميم بعض الأعمدة والمآذن وطلاء الجدران والمداخل المحيطة بالمسجد من الداخل والخارج[(١)]، وكان فلبي قد شهد تلك الترميمات فوصفها بقوله: "زرت المدينة في عام ١٩٣٥م وكان العمل على قدم وساق في المآذن وفي الداخل مما جعل المسجد يبدو آنذاك أقرب لساحة بناء وورشة نجار منه لمكان عبادة وفي عام ١٩٣٨م كان العمل قد قطع شوطا بعيدا وإن يفرغ منه بعد"[(٢)].

وممن أشار إلى هذه الترميمات إبراهيم محمد حبيب بقوله: "منذ سنوات قليلة قامت الحكومة المصرية بإصلاح ما خشيت أن يصيبه الخلل من أجزائه"[(٣)].

ويخبرنا محمود ياسين عن تحسن حالة المسجد بعد هذه الترميمات فيقول: "كنت تشرفت بزيارة المسجد النبوي قديما سنة ١٣٥٦ في ذي الحجة فكان يحز في قلبي الإهمال الكبير لأعظم مسجد نبوي من قمه وتنظيفه وفرشه، ولما رأيته هذه المرة كان على خلاف ما

(١) التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ٢٢٨/٣؛ .عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي، ص ١٣٠٨ - ٣٠٩؛ المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، ص ١٠١..

(٢) انظر الرحلة رقم: ٥٧ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (١٨١١)

(٣) انظر الرحلة رقم/٦٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢١٣٩)

رأيته من قبل، فقد أسرعت الحكومة المصرية الفاروقية إلى فرش أرض الحرم بالرخام الأبيض، والسجاد النفيس"[1].

وفي ١٢/ شعبان / ١٣٦٨ أعلن الملك عبد العزيز رحمه الله في خطاب وجهه للأمة الإسلامية عزمه على إجراء أول توسعة للمسجد النبوي على نفقته الخاصة، فتم افتتاح مكتب خاص؛ للإشراف على مشروع التوسعة، وإعداد ما يلزمه من سيارات وآليات لإزالة الأنقاض من حوله، وإنشاء مصنع للأحجار اللازمة للبناء.

بدأت أول مراحل المشروع في شوال من عام ١٣٧٠هـ، وذلك بإزالة أنقاض العقارات التي نزعت ملكيتها من حوله بتعويضات مجزية قدرت بـ٢٥ مليون ريال سعودي آنذاك.

وتابع الملك سعود رحمه الله الإشراف على التوسعة بعد وفاة المؤسس الملك عبد العزيز يرحمه الله، وفي شهر ربيع الأول من عام ١٣٧٣ هـ زار الملك سعود المسجد النبوي الشريف وبنى بيده أربعة أحجار في إحدى زوايا الجدار الغربي مما يلي باب الرحمة، وفي ٥ / ربيع الأول / سنة ١٣٧٥هـ اكتملت التوسعة السعودية الأولى، وظهر المسجد النبوي الشريف في حلته الجديدة، التي يغلب عليها اللون الأبيض المطعم باللونين الأسود والأحمر.

وقد أشار الرحالة محمد كامل حته إلى هذه التوسعة بقوله: "وقد علمت أن الأمير سعود بن عبدالعزيز في زيارته للمدينة بعد موسم الحج، تعهد بتنفيذ برنامج عمراني واجتماعي للنهوض ببعض مرافقها، ولا ينبغي أن أغفل المشروع الجليل الذي رصد له الملك عبدالعزيز ٥٠ مليوناً من الريالات ألا وهو عمارة المسجد النبوي الشريف"[2].

واستعرض الرحالة علي رضا التونسي تاريخ عمارات المسجد النبوي ومقدار الزيادة في كل عمارة إلى أن وصل إلى التوسعة السعودية فقال: "وأخيراً تناولت توسعة الحرم المدني التي تمت في عهد الملك سعود إضافة ٦٢٤٦م٢، والحرم النبوي اليوم يعتبر تحفة رائعة لفن البناء الإسلامي، وقد أحيط بشوارع من جهاته الأربع، وفرشت أرضيته بالسجاد الفاخر، ويقوم

(١) انظر الرحلة رقم/٣٥ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١١٦٨)

(٢) انظر الرحلة رقم/٧٨؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٤٠١)

على تنظيفه و خدمته عشرات من الناس؛ فهو يبدو دوماً في أعين الناظرين درة متلألئة لا تشبع العين من رؤيتها[1].

وأضاف الرحالة باعزيز بن عمر أن المسجد بعد هذه التوسعة "بلغ مبلغاً لا يدانيه مسجد سعة وجمالاً وحسن إتقان وفن هندسة ... أجمل وأكمل مما وصفه صاحب مرآة الحرمين". ثم ذكر المرسوم الملكي الذي أعلن فيه عن هذه التوسعة فقال: "يرجع تاريخ الشروع في تجديد المسجد النبوي في عهد المملكة السعودية إلى سنة ١٣٦٨هـ، إذ أصدر جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود طيب الله ثراه أمره بعزمه على توسعة المسجد النبوي، وكان البدء بتنفيذ المشروع سنة ١٣٧٠هـ فهدمت الدور المحيطة بالمسجد بعد دفع تعويضات لأصحابها، واستغرق العمل أكثر من ثلاث سنوات، ونظم في ٥/ ربيع الأول / ١٣٧٥هـ احتفال رسمي حضرته عدة وفود من أقطار العالم الإسلامي، بمناسبة انتهاء العمارة الجديدة، فعبرت عن إعجابها بفخامة البناء، ودقة الإتقان، وجمال المنظر، وروعة الفن". ثم ذكر أن مساحة المسجد قبل التوسعة السعودية كانت ١٠٣٠٣م٢ وبلغت الزيادة السعودية ٦٠٢٤ م٢ فوصلت مساحته ١٦٣٢٧ م٢[2].

وأضاف: "لكن رغم ذلك فإنه في مواسم الحج لا يستوعب جميع المصلين، مما يضطر كثير من الناس إلى الصلاة في الساحات والشوارع المحيطة به، حيث يلاحظ نقصان النظافة والهدوء والاطمئنان، نتيجة مرور السيارات وتزاحم المشاة"[3]. وذكر أنه نقل هذه الملاحظات إلى المسؤولين فقال له المسؤول: إن الحكومة السعودية عازمة على إيجاد الحلول الضرورية لجميع المشاكل والقضايا التي تتعلق بتنظيم الحج، وتسهيله أمام جميع الحجاج. وتابع قائلا: "وإني على يقين أن الحكومة السعودية لا تعجز عن المزيد من الإصلاحات والمنجزات في هذا الميدان"[4]. وصدق حدسه فلم تمض ثلاثة عقود إلا وقد وضع حجر الأساس لمشروع أكبر توسعة جرت للمسجد النبوي الشريف عبر التاريخ.

---

(١) انظر الرحلة رقم/٨٢؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٤٦٣ -٢٤٦٤)

(٢) انظر الرحلة رقم/٨٥؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٢٥-٢٥٢٦-٢٥٢٧)

(٣) انظر الرحلة رقم/٨٥؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٥١٧-٢٥٢٦-٢٥٢٧)

(٤) انظر الرحلة رقم/٨٥؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٢٨)

ونقل لنا الرحالة: الطيب عيسى معلومات تفصيلية عن توسعة الملك عبد العزيز من كتاب: "وفد الله إلى حرمه" للأستاذ محمود الباجي، وهو عضو في الوفد التونسي الرسمي لحج هذا العام فقال: "أما توسيع مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وتحسينه في عهد المملكة العربية السعودية فحدث عنه ولا حرج، فتكليفه كان آية إعجاب، ولا أبالغ إن قلت: إن هذا المسجد الذي تم بناؤه وتشييده في الأعوام الأخيرة هو أضخم وأفخر ما رأيته في قيد حياتي بعد رحلاتي الشاسعة في المشرق والمغرب، ومن المعلوم أن بنايات المغرب الأقصى هي أعظم البنايات العالمية، ومع ذلك فإن تشييد المسجد النبوي الشريف وحرم المدينة يفوقها بكثير، حيث تظهر في المسجد الهندسة المعمارية في أجلى مظاهرها وأجمل مشيداتها قديما وحديثا؛ وقد عثرت بعد أن كتبت ما تقدم على نبذة تاريخية جاءت في كتاب: "وفد الله إلى حرمه" لمؤلفه العلامة المحقق: الأستاذ محمود الباجي عضو الوفد التونسي الرسمي لحج هذا العام رأيت من الأوفق نشرها برمتها". ثم قال تحت عنوان: (أعظم مشاريع العمارة): "لم يشهد التاريخ عناية بالحرمين كالتي بذلها الملك المرحوم عبدالعزيز آل سعود وابنه جلالة الملك سعود- مئات الملايين ترصد للعمارة-الحكومة السعودية ترفض كل إعانة خارجية – عشرات الآلاف من العملة يعملون لخمس سنوات – أصبح المسجد النبوي يتسع لكل الوافدين من أطراف العالم الإسلامي، انصرفت عناية صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود إلى عمارة الحرم المدني بعد أن ضاق على زائريه، وتداعت بعض أسطواناته، وقد بدأ العالم الإسلامي يكتتب لفائدة توسعة الحرم وتجديد ما تداعى من بنائه، لكن جلالته -أجزل الله ثوابه- أعلن أن التكاليف ستكون على حسابه الخاص"[1].

ثم استطرد في حديثه عن تاريخ عمارات المسجد ومقدار الزيادات التي أضيفت في كل توسعة إلى أن ذكر تحت عنوان" المشروع السعودي" فقال: "لم يجر أي تغيير على وضعية المسجد النبوي الشريف بعد التوسعة التي قام بها السلطان عبد المجيد الأول إلى أن تقررت التوسعة السعودية التي بدأها جلالة الملك الراحل بشراء ومعاوضة الأملاك التي حوله،

(١) انظر الرحلة رقم: ٧٩ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٤٠٦-٢٤٠٧)

وإضافتها للمسجد، وقد بلغت مساحة العمارات المضافة ٦٢٤٦م٢، وقد انتدب جلالة الملك الفنيين والمهندسين من أطراف العالم الإسلامي من باكستان ومصر وسورية والحجاز، واشتغل آلاف من العملة أيسرت أحوالهم، ووجدوا الأجور المغرية، والمعاملة الطيبة الكريمة، وجلب المرمر والنقوش الرفيعة من عدة أقطار، ونقشت في معمل جدة للمرمر، بدأت الأشغال بالتوسعة يوم ٥/شوال / ١٣٧٠تحت إشراف معالي صالح القزاز مدير التوسعة، ومباشرة معالي محمد بن لادن، وبلغت مساحة الأماكن المنتزعة ١٢٠٠٠م٢، وقدرت تكلفة العمارة بخمسين مليوناً من الريالات السعودية، وزيد في السواري ٢١٢ عموداً، ويبلغ عمق أسس المنارات الأربع ١٧ مترا في جوف الأرض، وقد تمت التوسعة منذ ثلاثة أعوام، وافتتح القسم الجديد المضاف للزائرين والمصلين في الحرم النبوي، وكنت من زائريه بعد التمام وحسن الختام"[١].

ثم ذكر أبواب المسجد بعد التوسعة فقال: "لهذا المسجد أبواب قديمة كثيرة، غيرت بعض أسمائها، وحديثة أحدثت بعد توسعة المسجد، منها باب السلام، وباب الرحمة، وباب الصديق، الذي يشتمل على أبواب مدرجها واحد فيما بين بابي السلام والرحمة، وجميعها في واجهة واحدة، ومنها بالجهات الأخرى باب النساء، والباب العزيزي نسبة إلى الملك عبدالعزيز آل سعود وغيرها من الأبواب"[٢].

وذكر الرحالة المؤرخ المعروف عاتق البلادي: "أن للمسجد النبوي عشرة أبواب بعضها من التوسعة السعودية، وبعضها مما هو سابق، وهذا هو تعدادها:

١- من الناحية الشرقية وعلى الترتيب من الجنوب إلى الشمال: باب جبريل، باب النساء، باب عبدالعزيز، ثلاثة.

٢- من الناحية الشمالية على الترتيب من الشرق إلى الغرب: باب عثمان رضي الله عنه، باب عبد المجيد، باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والمجموع ثلاثة.

---

(١) انظر الرحلة رقم: ٧٩ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٤٠٩)

(٢) انظر الرحلة رقم: ٧٩ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٤١١-٢٤١٢)

٣- من الناحية الغربية وعلى الترتيب من الشمال إلى الجنوب: باب سعود، باب الرحمة، باب الصديق رضي الله عنه، باب السلام، والمجموع أربعة"[١]. ثم طرح التساؤل عن تحاشي العثمانيين والسعوديين عن تسمية باب باسم علي رضي الله عنه، ورجح أنهم فعلوا ذلك تجنباً لمغالاة الشيعة، والله أعلم[٢]. و ذكر متولي عيد صابر أنهم كانوا يسمون باب جبريل بباب الجبر؛ "إذ يخرج منه المتوفى بعد الصلاة عليه بالمسجد مجبور الخاطر"[٣].

ومما ينبغي التنويه عليه أن الرحالة لم يتحدثوا عن الزيادة التي أضافها كل من الملك فيصل والملك خالد، رحمهما الله، على المسجد النبوي الشريف. ومن المعلوم أن الملك فيصل أضاف إلى الجهة الغربية من المسجد ساحة مساحتها ٤٠٥٠٠م٢ سقفت بمظلات متينة على شكل قباب، كما ضم الملك خالد سنة ١٣٩٧هـ إلى حمى المسجد في جهته الجنوبية الغربية مساحة قدرها ٤٣٠٠٠م٢ على غرار المظلات السابقة، مع أن بعضهم أشار إليها في سياق آخر، حيث ذكر أنه حين لم يتمكن من دخول المسجد الشريف للصلاة فيه نظراً لشدة الزحام في المواسم؛ صلى في الساحات المعدة للصلاة حوله تحت المظلات[٤].

وعقد الطنطاوي مقارنة عن حال المسجد النبوي قبل التوسعة السعودية الأولى وبعدها فقال: "المسجد النبوي في سنة ١٩٣٥م كالأموي في دمشق، محجوباً بالبيوت والدكاكين، ولا يبدو منه إلا أبوابه، وكان الذي يخرج من باب السلام لا يصل إلى الباب المجيدي حتى يلف ويدور، فوجدته سنة ١٩٥٦م ظاهر الجدران، بارز الأركان ،بادي الجلال، تطيف به من الجهات الأربع شوارع فسيحة، ووجدته بعد التجديد والتوسيع آية في عظمة البناء"[٥].

وأما التوسعة الكبرى التي قام بها الملك فهد بن عبد العزيز، رحمه الله؛ فليس لها على أهميتها وضخامتها وروعتها نصيب من حديث رحالة هذا العصر، ولعل انتشار القنوات الفضائية، والصور، والفيديوهات؛ أغنت عن التعبير، فما راء كمن سمع، إلا أن الرحالة أبو

---

(١) انظر الرحلة رقم/٨٧؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٥٧)

(٢) انظر الرحلة رقم/٨٧؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٥٥٨)

(٣) انظر الرحلة رقم: ٧٦ ؛ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٢٧٢)

(٤) انظر الرحلة رقم/ ٨٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢٦٠٤)

(٥) انظر الرحلة رقم/٥٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص:(١٨٨١)

بكر القادري شهد بدايات هذه التوسعة الشاملة، وهي في طور الإنشاء والتأسيس، وذكر في رحلته الثانية سنة ١٤٠٦هـ أنه خرج بعد الفجر من المسجد النبوي من أبواب الجهة اليسرى فلاحظ "أن المتاجر والدور والبنايات التي كانت محيطة بالمسجد جميعها هدم، فأصبحت الساحة فسيحة جداً". قال: "وعلمنا أن جلالة الملك فهد كان قد أعطى أوامره لتوسعة المسجد النبوي حتى يتسع للأعداد الغفيرة التي كانت تزداد سنة بعد أخرى، وأن المخطط الذي وضع لإعادة البناء بالإضافات الجديدة سيجعل المسجد النبوي يتسع لخمس مئة ألف من المصلين، وأن أصحاب المتاجر والدور والبنايات التي هدمت أعطي لهم التعويض الكامل الناجز المغري، حتى تكون نفوسهم مطمئنة، وحتى لا يضاف إلى المسجد قطعة أرض إلا وأهلها راضون مسرورون، وإن حسنات من عملوا أو سعوا في توسعة الحرمين ستتضاعف، وكذلك حسنات توسعة المسجد النبوي ستكون مخلدة في صفحات جلالة الملك فهد، الذي قيل: إنه سهر بنفسه على هذه التوسعة بجميع ملحقاتها، التي منها تأسيس مطبعة نموذجية كبيرة تتخصص في طبع ملايين من المصاحف الشريفة لتوزع في جميع أنحاء العالم"[١].

ورغم أن هذا الرحالة زار المدينة مرة ثالثة سنة ١٤١٤ هـ بعد إنجاز هذه التوسعة الكبرى؛ إلا أنه اكتفى بالإشادة بهذا التطور والانفجار الحضاري الهائل الذي شهدته المدينة المنورة؛ على كافة الصعد العلمية والخدمية، ولم يفصل القول فيها[٢].

وقبل أن أختم هذا المطلب أذكر هنا: أن هذا العهد تميز عن سابقه بالانفجار المعرفي، والتقدم الصناعي والتقني الهائل، فوصلت البشرية إلى ذرا من الرفاهية لم تسبق، فمن الوسائل الحديثة التي استعملت أول مرة في التاريخ السيارات، ومن بعدها الطائرات كوسائل نقل للوصول إلى بلاد الحرمين الشريفين، وذكر العلامة علي الطنطاوي والشيخ محمود ياسين أن كل واحد منهما اشترك في قافلة بالسيارات؛ لاكتشاف الطرقات وسبرها لترسيمها؛ والعمل على فتحها.

---

(١) انظر الرحلة رقم: ٩١ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٦٥٨ ولغاية -٢٦٦٥)

(٢) انظر الرحلة رقم: ٩١ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (٢٦٦٤ -٢٦٦٥ - ٢٦٦٦)

كما استعملت في مطلع هذا العصر البرقيات والتلغراف[1]، وكان مع الرحالة عبدالله فلبي جهاز لاسلكي أودعه في مديرية البريد والبرق في المدينة، واستلمه منه يحيى بيه السوري؛ بحضور أمير المدينة[2]. وقال الدريابادي إنه لم يعد يشعر بالغربة لأن البريد القادم من بلده الهند يوزع في المدينة المنورة ثلاث مرات في الشهر[3].

وذكر الطنطاوي أنه في رحلته الأولى لاستكشاف الطريق البري بين دمشق والمدينة سنة ١٣٥٣هـ بالسيارات أمضى في الطريق عشرين يوماً؛ فما وصلوا إلا بعد عناء شديد؛ ثم لما رجع لزيارتها سنة ١٩٥٦م بالطائرة؛ استغرقت رحلته ثلاث ساعات فقط.[4].

ووسائل التبريد والتكييف ابتدأت بالمرواح الكهربائية، فقد ذكر عباس متولي أنه رأى في الروضة الشريفة مرواح كهربائية؛ تدار عند شدة الحر[5]. ثم أعقب ذلك في التوسعة الثانية تركيب ثاني أكبر وأحسن نظام تكييف على مستوى العالم، في كل ركن من أركان المسجد النبوي الشريف.

(١) انظر الرحلة رقم/٥٣ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٧٥٢)

(٢) انظر الرحلة رقم: ٥٧ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (١٨٠١)

(٣) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٢٠-١٢٢١)

(٤) انظر الرحلة رقم/٥٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص:(١٨٧٧)

(٥) انظر الرحلة رقم/ ٦٠من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٩٠٢)

المطلب الرابع: الحركة العلمية في المسجد النبوي كما يراها رحالة العصر السعودي الحالي:

من الملفت للنظر في هذا الباب أن أغلب الرحالة لهذا العهد؛ لم يتطرقوا في رحلاتهم إلى هذا الموضوع، إلا نفر قليل منهم، ولعل ذلك يعود إلى أكثر من سبب؛ منها: تراجع دور المساجد بعد ظهور المدراس والمعاهد والجامعات في شتى الاختصاصات، فاقتصرت الدروس في أغلب المساجد على الوعظ والإرشاد، وحلقات تلاوة وتحفيظ القرآن الكريم، بعد أن كانت تقوم من قبل بالدور الذي تقوم به المدراس والجامعات اليوم، ناهيك أن من بين الرحالة من لم يكونوا من طلبة العلم ولا من المهتمين بشأنه، أو لم يجد في رحلته الخاطفة وقتاً كافياً للاطلاع على ذلك، فالرحالة محمد أمين التميمي ذكر في رحلته أنه حضر "حلقة الدرس الذي كان يلقيه الشيخ محمد علي بن تركي فلمس فيه سعة الاطلاع والورع، لكن دواعي الرحيل قطعت عليه فوائده، فأضمر في نفسه أن يعود إليه بعد أن يفرغ من أشغاله"[1].

وكما تباينت انطباعات الرحالة عن الحركة العلمية في عدد من العصور؛ تباينت انطباعاتهم أيضاً في هذا العصر، بين مشيد بسعتها، ومتحسر على ضياعها.

فقد تحدث الرحالة الهندي **عبد الماجد الدريابادي** عن لقائه "بالعلامة الشيخ أحمد فيض أبادي، أحد الهنود الأفاضل المجاور من عشرين سنة، ... عند باب النساء، وذكر -أيضاً- أن صحن المسجد يمتلئ بحلقات مختلفة لدراسة الحديث أو النحو والصرف وغيره، وبعد المغرب يقوم كثير من العلماء بالوعظ؛ وكان من الوعاظ واعظ يعظ الناس باللغة الأردية بصوت جهوري عال، وبلحن جميل، قيل: إنه من سكان دلهي، ولكنه بنجابي اللكنة، يخطئ في قراءة آيات القرآن، ويخطئ في شرح معانيه، ويستخدم لغة غير مهذبة وجسورة في الدعوة..."[2].

وقال الرحالة الشيخ **محمد الطيب الكتاني** في "الأنفاس النورانية": "التقينا بالشيخ محمد بن أحمد العمري، فطلب منه والدنا أن يجيزه بحديث الأولية: (الراحمون يرحمهم الرحمن؛

---

(١) انظرالرحلة رقم: (٥٥) من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" ص: (١٧٧٣)

(٢) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٤١ وما بعدها) وانظر أيضا ص: (١٢٧٥- ١٢٧٦)

ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) [1]؛ وبما صح عنده، فأجازه وكتب نص إجازته". كما أورد نص إجازة الشيخ المحدث علي بن علي الحبشي له سماعاً بجميع مروياته، والتقى بالشيخ أحمد العلمي في وسط الحرم المدني، والشيخ عبدالقادر الشلبي الطرابلسي، وقاضي المدينة الشيخ محمد زكي بن الشيخ أحمد البرزنجي، والعلامة الهندي عبد الباقي الأيوبي. [2]

وذكر **عباس متولي حمادة** أن في المسجد النبوي أربعة مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم. وقال: "يتولى التدريس علماء؛ منهم من يتقاضى من الحكومة مرتباً؛ ومنهم من يتطوع بالتدريس ابتغاء مرضاة الله، وأخص بالذكر من بين العلماء الموظفين: حضرة الأستاذ الشيخ صالح التونسي؛ ومن الذين لا يبتغون به عرضاً من الدنيا فضيلة الشيخ محمد العايش، يدرس فقه السادة الشافعية، وعلم النحو، والتوحيد، والتفسير، والحديث، وسألت أهل المدينة عن حاله فأخبروني أنه مهضوم الحق، وأن عقيدته تخالف عقيدة النجديين في مسألة التوسل والوسيلة، ولهذا حرم من المرتبات التي تصرف على العلماء في الحرم، وجرد حتى من حق إشهاد عقد النكاح والطلاق" ثم قال: "لعلي بهذا قد كشفت الستار عن رجل عالم بائس مهضوم الحق في مدينة الرسول عليه السلام، فيسمع بذلك جلالة الملك المعظم عبد العزيز بن سعود وما أظنه قد علم بحاله من قبل فينصفه ويأخذ بيده، ويكافؤه على تعليمه النشأ ومواهبه العلمية"[3].

والتقى الرحالة الدمشقي الشيخ: **محمود بن أحمد ياسين**: بالشيخ صالح التونسي، والسيد الخضر حسين الأديب، والشيخ محمد علي بن حسين أعظم الهندي، والشيخ عبدالقادر الشلبي الطرابلسي في مدرسته، قال: "وقد تم الاجتماع بعد صلاة الجمعة بالشيخ محمد فوزي بن محمد شريف الباطومي، أحد علماء الآستانة، والمقيم في المدينة المنورة، عالم

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب: في الرحمة، ١٤٦/٥، ورواه الترمذي في أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في رحمة المسلمين ٤٨٣/٣.

(٢) انظر الرحلة رقم: / ٥٦ من كتاب " الرحلات إلى المدينة" ص: (انظرالصفحة ١٧٨٢ والصفحتين بعدها، وانظر الصفحة ١٧٨٩ و الصفحات الثلاث بعدها.)

(٣) نظر الرحلة رقم/ ٦٠من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٩٠٣ وما بعدها.)

تركي: درس بالحرم النبوي، ثم منع من التدريس فيه، أهداني رسالته المسماة: "النفحة المدنية"[1].

وقال محمد لطفي جمعة: "تسمع فيه القرآن يتلى، والدروس تقرأ في الحديث والتفسير من صالح التونسي، وأبو الطيب الأنصاري -خير علماء الحجاز- وعبدالرؤوف عبدالباقي المصري، وقد جلس حولهم مئات من الطلاب"[2].

وقال الأديب العلامة الشيخ **علي الطنطاوي**" "كان المسجد آية في عظمة البناء، لكنك إذا ولجته لم تجد فيه مع الأسف شيئاً مما كان ينبغي أن يكون فيه، فلا مجالس علم ولا حلقات درس ما فيه مدرس ولا تال يشرح ويفسر"[3].

ولو قدر للشيخ أن يعيش إلى هذا الوقت لرأى من النشاط العلمي الذي يتميز به المسجد اليوم ما تقر به عينه، فقد فتح فيه أكاديمية لتدريس العلوم الشرعية، ومكتبة ضخمة واسعة تضم مختلف صنوف المعرفة، وتقدم خدماتها على مدار الساعة، وتنتشر في أنحائه حلقات العلم وتحفيظ القرآن الكريم.

---

(١) انظر الرحلة رقم/٣٥ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (من ١١٧٥- ولغاية ١١٨١)

(٢) انظر الرحلة رقم/٦٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢١٧٠)

(٣) انظر الرحلة رقم/٥٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص:(١٨٨١)

المطلب الخامس: موظفو المسجد النبوي وسدنته في العصر السعودي الحالي.

شهد هذا العهد تغيراً تدريجياً في العادات والتقاليد المتبعة في آلية خدمة المسجد النبوي الشريف؛ شمل الأشخاص والآليات والمسميات.

وإذا ما رحنا نرصد التطورات المتلاحقة التي حدثت في هذا العصر؛ لرأينا بوناً شاسعاً بين ما كان عليه وما آل إليه، إلا أن الصورة التي رسمتها كتابات الرحالة في هذا العصر؛ ليست مكتملة الأبعاد، وقد يكون لانتشار القنوات التي تبث من داخل المسجد النبوي، والصور التي يلتقطها كل من يدخل المسجد النبوي، وسرعة انتشارها، وغير ذلك مما ظهر من الوسائل الحديثة؛ أغنت عن التوسع في الكتابة، إذ العيان أقوى من البيان.

بل أستطيع القوم إن الرحلة في هذا العصر لم تعد تؤدي الدور الذي كانت تؤديه في السابق، فقد بات العالم كالقرية الواحدة، ينتشر فيه الخبر في كل لحظة، بالصوت والصورة، ولم يعد لكتابة المشاهدات قيمة تذكر.

ومما جد في هذا العصر انحسار دور الأغوات الذين كانوا طيلة القرون السابقة يقومون على خدمته شيئاً فشيئاً، حتى أصدر الملك عبدالعزيز-رحمه الله- بإيقاف العمل بهذا النظام، والاكتفاء بمن بقي منهم على ألا يزاد عليهم، وتقلص نفوذ شيخ الحرم ومساعديه باشي الحجرة والنقيب، كما أنهى جلالته العمل بنظام المحاصصة في مختلف وظائف الحرم من أئمة وخطباء ومؤذنين وغيرهم، وتوريثها لأبنائهم من بعدهم، على الطريقة التي كان يعمل بها في العهد العثماني، إلى أن تم استبدالهم مؤخراً بشكل تام بموظفين متعددي التخصصات كل حسب ما أوكل إليه.

ومن يتتبع كلام الرحالة حسب التسلسل الزمني لكل رحلة؛ يدرك هذا التطور الذي ألمحت إليه.

يقول عبد الماجد الدريابادي وهو من الرحالة الأوائل في هذا العصر: "يقال: إن الخدم كانوا هناك بالمئات، والآن قل عددهم كثيراً، وكان لهم نفوذ كبير، لكنهم الآن بالإضافة إلى قلة عددهم؛ فقدوا كثيراً من نفوذهم وسلطاتهم السابقة، ولا يزال لهم مكان خاص واسع

أو أريكة يجلسون عليها"[1]. وكان عامة خدم المسجد في زمنه من الخصيان الزنوج قال" وقد أوقف السلطان بن سعود – بحمد الله- هذا العمل الذي لا يتطابق مطلقاً مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة أصحابه، وبالرغم من هذا فلا يزال هنا في المسجد من بين هؤلاء ما يصل عدده إلى ما بين ٢٥ و٣٠ خصياً، وكانوا في الأصل خدم المسجد النبوي منذ سنوات، وقد تقلصت سلطاتهم وحد من مسؤولياتهم، كما قلت مخصصاتهم، أما النذور التي كانت تمنح لهم قديماً فهي على حالها، يعرفون بلباسهم الأبيض الفضفاض بأكمام واسعة وعمامة بيضاء، وأهل الحرم المجاورين له يمدون إليهم يد المساعدة في كل وقت إذا لزم الأمر"[2].

وذكر الدريابادي أن "رئيس الأغوات الحالي هو خليل آغا، وهو على خلق طيب .. وشيخ الروضة الشيخ توفيق كردي، يتولى هذه العهدة منذ العهد التركي ... يجلس في الروضة بين المنبر النبوي والمصلى النبوي، يعير المصاحف، ونقيب العلماء: يجلس في المحراب الشمالي للصحن القريب من الباب المجيدي يقوم بتدريس الصبية"[3].

وتحدث الدريابادي عن ميقات إغلاق أبواب المسجد فقال: "بعد صلاة العشاء بقليل يصيح الخدام معلنين بأنهم لن يسمحوا لأي شخص بالبقاء أو الاختفاء داخل المسجد، وتطفأ الأنوار، وتغلق الأبواب، ويبيت في المسجد خادمان فقط"[4].

وذكر مصطفى الراعي أن الحكومة السعودية أعطت المناصب الرئيسية من وظائف الحرم للنجديين، "فكنت ترى الوالي، وشيخ الحرم، والخطيب، والعلماء، والأطباء؛ أكثرهم من النجديين، ولا تثريب عليها في ذلك لأنها تريد أن تحفظ كيان الدولة من المناوئين"[5].

وتحدث الشيخ محمود ياسين عن ظهور التخصصات، وتوزيع المهام بينهم؛ فقال: "أصبحت فيه طوائف من العمال لقم المسجد وتنظيفه، فناس للقم، وناس للغسل، وناس

(١) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٣٦ -١٢٧٦)
(٢) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٣٦ -١٢٧٦)
(٣) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٧٧-١٢٧٨)
(٤) انظر الرحلة رقم/٣٧ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٢٨٠)
(٥) انظر الرحلة رقم/٥٣ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١٧١٨)

للمسـح، وناس لتنظيف القناديل"[1]. قال: "والماء فيه كثير؛ على كل باب من أبوابه الخمسة مواضع للوضوء؛ وماء الشرب لا ينقطع؛ فيه أباريق صغيرة وآنية كتب عليها اسم الواقف"[2].

ويقول محمد لطفي جمعة: "المدنيون يحملون أباريق من الفخار غاية في الأناقة، وطاسات من المعدن الأبيض؛ يملؤونها من ماء العين الزرقاء"[3].

هذا ما رصده رحالة هذا العصر، وتبقى الصورة التي رسموها ـ كما أسلفت ـ ناقصة، أغنت عنها الصور المنتشرة في كل مكان، والمتجددة على مدار الساعة، والتي ترصد التطور المذهل في الخدمات المقدمة للمسجد النبوي الشريف وزواره في كل المجالات.

□

(١) انظر الرحلة رقم/٣٥ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١١٦٨)

(٢) انظر الرحلة رقم/٣٥ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (١١٦٨)

(٣) انظر الرحلة رقم/٦٩؛ من كتاب: "الرحلات إلى المدينة" مرجع سابق؛ ص: (٢١٧٠)

خاتمة البحث:

بعد هذه المسيرة الطويلة التي صحبت فيها الرحالة زهاء عشرة قرون، ابتداء من القرن الخامس الهجري إلى بداية القرن الرابع عشر الحالي، حاولت من خلال ما سطروه أن أرسم صورة واضحة عن مبنى المسجد النبوي الشريف والتطورات التي جرت عليه من الجانب الهندسي المعماري، وأن أدون مشاهداتهم وانطباعاتهم وما ذكروه عن العادات والتقاليد المتبعة في خدمته؛ والقيام على تدبير شؤونه، وأن أرصد الحركة العلمية التي جرت فيه، من خلال الدروس واللقاءات وتبادل الإجازات، وأن أُبرز السمات الخاصة بكل عصر.

ونظراً لطول البحث، وكثرة نتائجه فإنني سوف أسجل أبرز النتائج العامة التي توصلت إليها، تاركاً النتائج التفصيلية ليتعرف عليها القارئ من خلال البحث، وأبرزها:

١- شملت الدراسة جميع العصور التاريخية؛ بدءاً من وصول أول رحلة في القرن الخامس الهجري وحتى تاريخ إعداد الدراسة.

٢- قمت بتنزيل الرحلات بحسب تبعية المدينة المنورة في العصور المختلفة، بدءاً من العصر العباسي الثاني وانتهاء بالعهد السعودي الحالي. ولم أعثر في العصر السعودي الأول ١٢٢٠-١٢٢٦ هـ ولا في عصر محمد علي باشا ١٢٢٦-١٢٥٦هـ على أية رحلة تخص الرحالة المسلمين. كما أني لم أعثر في العصر الهاشمي سوى على رحلة واحدة جرت سنة ١٣٤٤هجرية، في الوقت الذي كان يتم فيه التحول السياسي من العهد الهاشمي إلى العهد السعودي فضممتها إليه.

٣- شهدنا زيادة ملوحظة في عدد الرحلات كلما اقترب بنا الزمن، ففي العصر العباسي وقفت على ثلاث رحلات فقط؛ ثم تضاعف العدد في العهد المملوكي؛ إلى أن بلغت في العهد السعودي الحالي ٤٤ رحلة.

٤- آخر رحلة وقفت عليها في العصر السعودي الحالي كانت عام ١٤١٩هـ، ثم انقطعت الرحالات، ولعل السبب يعود إلى أن الناس بدؤوا يعتمدون على الوسائل المرئية والمسموعة بدلا من الرحلات المقروءة.

٥- تميز الرحالة المغاربيون على غيرهم في عدد الرحلات، بواقع ٦٣ رحلة، يليهم الهنود والباكستنيون بواقع ٢٣ رحلة، ثم المصريون بواقع ١٩ رحلة، ثم يأتي بعد ذلك السعوديون والسوريون وباقي الأجناس.

٦- العصر العباسي والعصر المملوكي مغاربي بامتياز، لم تسجل فيه أية رحلة لغيرهم.

٧- لم يعاصر رحالة العصر المملوكي الحريق الثاني سنة (٨٨٦هجرية) في عهد الملك الأشرف قايتباي المملوكي، وما أعقبه من عمارة الأشرف له وللحجرة الشريفة؛ لذلك جاء تفاصيل الحديث عنها عند رحالة العهد العثماني الأول.

٧- بينت الدراسة اختلاف أصناف الرحالة وتنوع اهتماماتهم؛ فمنهم الرحالة المحترفون الذين وقفوا على كل صغيرة وكبيرة من معالم المسجد النبوي، ومنهم من قصر اهتمامه على المشاهدات والمظاهر الإيجابية والسلبية، ومنهم من كانت تستوقفه العادات والتقاليد والأعراف المتبعة في خدمة المسجد النبوي والحجرة الشريفة، فرصدوا تغيرها التدريجي عبر الزمن، ومنهم من كان من طلبة العلم حريصاً على لقاء العلماء للأخذ عنهم واستجازتهم فيما يحملون من أصناف العلوم؛ فرصدوا الحركة العلمية في المسجد النبوي؛ وبينوا أنواع الدروس التي تلقى فيه ومواقيتها ومدتها والأمكنة التي كان يجلس فيها كل منهم، ومنهم من اقتصرت رحلته على الحديث عن المشاعر الإيمانية.

٨- سجل البحث عدداً من الخرافات التي كانت سائدة في كثير من المراحل التاريخية، مثل ما يعتقدونه من كأس كسرى، ولعبة الحسين والحسين، وغير ذلك مما جرى التنبيه عليه في محله من البحث.

٩- تميز رحالة العصر العثماني، وبخاصة الرحالة لبيب البتنوني، برصد كافة التفاصيل المتعلقة بالمسجد النبوي، والتغيرات التي طرأت عليها عبر الأزمنة من مختلف الجوانب.

١٠- رغم كثرة عدد الرحلات التي وصلتنا عن العصر السعودي الحالي إلا أنها لم تنجح في مواكبة التطورات الهائلة التي حدثت في المسجد النبوي في مختلف الجوانب لعمرانية والخدمية وغيرها، ولم ترسم صورة واضحة عن التوسعات الكبيرة التي جرت له، ولعل ذلك

يرجع إلى الانفجار المعرفي الهائل؛ وتداول المعلومات عبر وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة، فاستغنى الناس بالصورة عن الوصف.

١١- وجدت تفاوتاً كبيراً بين رحالة وآخر في الأسلوب؛ وذلك يعود إلى تفاوت قدراتهم اللغوية، ومواهبهم الأدبية، فمنهم من اعتمد على أسلوب السرد الإخباري المباشر، ومنهم الضليع الذي تسعفه قريحته في شتى فنون القول شعراً ونثراً واقتباساً، ومنهم المتمكن من فن الرحلات وطبائع البلدان على طريقة الجغرافيين، ومنهم من هو دون ذلك، إلى أن تجد بينهم من يقول الشعر المضطرب الوزن والمعنى، بل ستجد من يهبط بأسلوب هو أقرب إلى العامية، كما آثرت طائفة منهم طريقة كتابة الأحداث بأسلوب اليوميات .

ومن الختام أقول: إن علم الرحلات علم واسع، لم يكشف لنا عن أسراره بعد، ولا يزال بحاجة إلى مزيد من الدراسات والبحوث، إذ تعد معاينات الرحالة وثائق هامة، تحتاج إلى الدراسة والتحليل والتمحيص؛ لتكشف لنا الصورة الحقيقية للمجتمعات في مختلف الجوانب العلمية والعمرانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وعليه فإنني أحث إخواني من الباحثين في المجالات المختلفة أن يوجهوا عنايتهم لكتب الرحلات، وسوف يقفون فيها على بحوث جديرة بالاهتمام والعناية.

ولا يسعني في هذا الختام إلا أن أرفع شكري لخالقي ومولاي أن وفقني لإتمام هذا البحث، وأسأله أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يكتب له القبول.

والحمد لله رب العالمين،،،

□

فهرس المصادر والمراجع

١- إحراز المعالي والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب.؛ محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي.تحقيق: محمد بوكبوط؛ الناشر: دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي ٢٠٠٣م. والمؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ بيروت لبنان؛ ط/١ ؛ ٢٠٠٣م.

٢- أرض المعجزات ولقاء مع التاريخد. عائشة محمد عبد الرحمن الحسيني، المعروفة ببنت الشاطئ؛ الناشر :دار المعارف بمصر، ط ٣د.ت.

٣- الاستبصار في عجائب الأمصار ؛ لرحالة مجهول، من مراكش، تحقيق: د. سعد زغلول عبد الحميد. دار النشر المغربية في الدار البيضاء ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٤- أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، علي بن أحمد الإلفي السوسي الدرقاوي، طبعت الرحلة بتهذيب: ابنه محمد المختار، المغرب.

٥- إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت؛ أحمد بن عبد الله بن محمد السلجماسي الفلالي المعروف بابن أبي محلي الفقيه الثائر؛ تحقيق: عبدالمجيد القدوري؛ منشوراط عكاظ؛ الرباط -المغرب؛ ١٩٩١م.

٦- أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب؛ محمد بن أحمد بن عبد العزيز محمد القيسي؛ الشهير بالسراج والملقب بابن مليح؛ تحقيق: محمد الفاسي، ولم يذكر الطبعة وتاريخها ومكانها.

٧- الأنفاس النورانية؛ محمد الطيب بن محمد المهدي بن أبي الفيض الكتاني مراجعة: محمد المهدي الكتاني، إعداد: عبد الله الكامل الكتاني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٨- الأيام المبرورة في البقاع المقدسةمحمد لطفي بن الشيخ جمعة بن أبي الخير الإسكندري؛ مراجعة: رابح لطفي جمعة، الناشر :عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٩-١٩٩٨م .

٩- بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام؛ للشيخ عبد المجيد بن علي المنالي الحسني الإدريسي المرادي؛ تحقيق: محمد زينهم عرب. الناشر: الدار الثقافية للنشر؛ القاهرة ١٤٢٧هـ.

١٠- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضر الحسيني الزبيدي، ط١، المطبعة الخيرية ـ مصر ١٣٠٦هـ.

١١- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق؛ خالد بن عيسى القنتوري البلوي؛ تحقيق: الحسن السائح؛ نشر: صندوق إحياء التراث الإسلامي، المشتركان: المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ١٣٩٠هـ.

١٢- التاريخ الشامل للمدينة، د. عبدالباسط بدر.ط:١، ١٤١٤هـ، المدينة المنورة.

١٣- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار؛ للرحالة الشهير محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة طبعت الرحلة بتحقيق: طلال حرب؛ الدار العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

١٤- حاج في الجزيرة العربية فيلبي؛ ترجمة: عبدالقادر محمود عبدالله؛ ط/١؛ مكتبة العبيكان؛ الرياض ١٤٢١هـ.

١٥- حاج في الجزيرة العربية هاري سانت جون بريدجر فلبي، أو الحاج: عبد الله فلبي؛ ترجمة: عبد القادر محمود عبد الله، :الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض ١٤٢١هـ.

١٦- الحباء من العيبة غب زيارتي لطيبة محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل؛ ط/١؛ الناشر/بدون ١٤١٣هـ.

١٧- الحباء من العيبة غب زيارتي لطيبةأبو عبد الرحمن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عقيل الظاهري الناشر المؤلف نفسه ١٤١٣هـ. د.ت ورقم ومكان.

١٨- الحج أسراره ومناسكه، أحمد حسين؛ الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.

١٩- الحجاز في عام ١٣٥٦هـأحمد إبراهيم عيسى؛ الناشر :المؤلف نفسه، مطبعة الاعتماد، القاهرة، د.ت.

٢٠- حكاية حج؛ موسم في مكةعبد الله حمودي؛ ترجمها عن الفرنسية: عبد الكبير الشرقاوي . الناشر :دار الساقي، بيروت. د.ت.

٢١- خواطر حاج الطيب بن عيسى؛ الناشر المؤلف نفسه، مطبعة المعهد الجديد، تونس، د.ت.

٢٢- الدرة الثمينة في أخبار الرحلة إلى مكة والمدينةعبد المحمود بن الشيخ نور الدائم الطيب؛ تحقيق: المدني محمد توم؛ الناشر: المجلس القومي للذكر والذاكرين؛ الخرطوم: ٢٠٠٧.

٢٣- ذكريات ورحلات صالح محمد جمال، الناشر : المؤلف نفسه، د.ت.

٢٤- رحلات الحج، لأحمد محمد محمود؛ ط/١؛ المطبعة المحمودية ١٤٣٠هـ.

٢٥- الرحلات الحجازية تصحيح وتعليق: حسن السماحي سويدان؛ ط/١ ؛دار النوادر للطباعة والنشر؛ دمشق ١٤٢٨هـ.

٢٦- الرحلات الحجازية محمد صادق باشا؛ تحرير: محمد همام فكري؛ ط/١ ؛ دار بدر للنشر والتوزيع؛ بيروت: ١٩٩٩.

٢٧- رحلات السيد محسن الأمين، محسن بن عبد الكريم الأمين بن علي العاملي؛ الناشر: مكتبة الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠١م

٢٨- رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسني الندويجمعها ورتبها: سيد عبد الماجد الغوري . الناشر : دار ابن كثير، دمشق، بيروت ١٤٢٢هـ.

٢٩- الرحلات الملكية يوسف ياسين؛ ط/بدون؛ دار الملك عبدالعزيز؛ الرياض ١٤١٩هـ.

٣٠- الرحلات إلى المدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ١٤٣٩هـ.

٣١- رحلات إلى شبه الجزيرة العربية لجون لويس؛ ترجمة: هتاف عبدالله؛ ط/١؛ مؤسسة الانتشار العربي؛ بيروت ٢٠٠٥م.

٣٢- الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، لمجموعة من المؤلفين: سهيل صابان ووناصر بن علي الحارثي، وبلقاسم سعدالله ؛ ط/بدون؛ دار الملك عبدالعزيز؛ الرياض ١٤٢١هـ.

٣٣- رحلات عبد الوهاب عزام؛ عبد الوهاب بن محمد بن حسين بن سالم عزام؛ الناشر :المؤلف نفسه، ط /٢، مطبعة الرسالة ١٣٧٠هـ- ١٩٥٠م.

٣٤- رحلات فارتيما جون وينتر ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ؛ ط/بدون؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

٣٥- رحلات فارتيما؛ البرتغالي نود فيكودي فارتيما؛ تأليف: جون وينتر؛ ترجمة: د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ القاهرة ١٩٩٤م.

٣٦- رحلاتي الحجازية، أبو بكر القادري؛ الناشر: المؤلف نفسه ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٣٧- الرحلة إلى المدينة المنورةمحمود بن أحمد ياسين؛ تحقيق: مأمون محمود ياسين الناشر: دار الفكر، دمشق ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٣٨- رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة؛ فخر الدين محمد بن محمد الطيب بن موسى الفاسي المعروف بالشرقي؛ تحقيق: عارف أحمد عبد الغني.الناشر: دار العراب ودار نور حوران دمشق ١٣٣٤هـ.

٣٩- رحلة ابن جبير: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار؛ محمد بن أحمد بن جبير أبي الحسن الكتاني الأندلسي ؛ طبعت في ليدن ١٨٥٢م. مع مقدّمة للمستشرق رايت، وأعيدت طباعته سنة ١٩٠٧م؛ ط/ بدون؛ دار صادر؛ بيروت؛ د.ت.

٤٠- رحلة ابن علوان إلى الأماكن المقدسة والأحساء والكويت والعراق؛ مرتضى بن علي بن علوان. تحقيق: أ.د سعيد بن عمر آل عمر؛ ط/٢ ؛مكتبة المتنبي؛ الدمام ١٤٢٥هـ.

٤١- رحلة إسباني إلى الجزيرة العربية دومنجوباديا؛ ترجمة: صالح بن محمد السنيري؛ ط/بدون؛ دار الملك عبدالعزيز؛ الرياض ١٤٢٨هـ.

٤٢- الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية، محمد بن عبدالرزاق بن محمد كرد علي؛ الناشر: مكتبة الثقافة الدينية؛ القاهرة عام ٢٠٠٧م.

٤٣- رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام سعد بن أحمد الربيعة؛ ط/٢؛ دار الملك عبدالعزيز؛ الرياض ١٤٢٩هـ.

٤٤- رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام؛ سعد بن أحمد بن حماد الربيعة التميمي؛ أعده للنشر حفيده سعود بن عبدالعزيز الربيعة، الناشر: دار الملك عبدالعزيز سنة ١٤٢٩هـ

٤٥- رحلة الحج إلى بيت الله الحرام؛ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجنكي الشنقيطي نشر: دار ابن تيمية. القاهرة د. ت.

٤٦- رحلة الحج ولقاء الشيوخ عبدالقادر العافية؛ ط/١؛ مركز التراث الثقافي المغربي؛ الدار البيضاء؛ ودار ابن حزم للطباعة والنشر بيروت ١٤٢٧هـ.

٤٧- الرحلة الحجازية الأولى، إبراهيم عبد الله نياس؛ الناشر: مخطوطات الغرب الأفريقي.

٤٨- الرحلة الحجازية، لولي النعم عباس حلمي باشامحمد لبيب البتنوني الناشر المؤلف نفسه؛ ط/٢ القاهرة ١٣٢٩هـ. ونشرتها أيضاً مكتبة المعارف؛ الطائف ط/٣ ؛ تحرير: محمد سعيد كمال؛ ت.د.

٤٩- الرحلة الحجازية؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبدالله الجزولي الحضيكي السوسي؛ تحقيق: عبد العالي لمدبر؛ الناشر: مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث والرابطة المحمدية لعلماء الرباط، ١٤٣٢هـ.

٥٠- الرحلة الحجازية؛ أوليا جلبي بن درويش محمد ظلي الملقب: بالحافظ ترجمة: الصفصافي أحمد المرسي؛ ط/بدون؛ دار الآفاق العربية؛ القاهرة ١٩٩٩م.

٥١- رحلة الربيع فؤاد إسماعيل شاكر؛ ط/٣؛ دار الملك عبدالعزيز؛ الرياض ١٤١٩هـ.

٥٢- الرحلة الطنجوية المزوجة بالمناسك المالكية، تأليف: الحسن بن محمد الغسال الطنجي؛ تحقيق: محمد فهيم بيومي؛ الناشر: زهراء الشرق، القاهرة ٢٠٠٩م

٥٣- الرحلة العياشية للبقاع الحجازية؛ المسمى: ماء الموائد؛ أبوسالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف العياشي تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دون ذكر الطبعة وتاريخها ومكانها.

٥٤- الرحلة العينية؛ ماء العينين بن العتيق؛ طبعت بتحقيق د. محمد الظريف ؛الناشر دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ٢٠٠٤م .

٥٥- الرحلة الفلسطينية إلى الديار الحجازيةمحمد عزة دروزة؛ طبعت بعناية: محي الدين طيلوني .الناشر : البيئة للطباعة والنشر. دمشق ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

٥٦- رحلة القلصادي الأندلسي؛ أبو الحسن علي بن محمد القرشي الأندلسي الشهير بالقلصادي؛ تحقيق: محمد أبو الأجفان ؛ نشر: الشركة التونسية للتوزيع؛ تونس ١٩٧٨م.

٥٧- الرحلة المدنية في سبيل إحياء الجامعة الإسلامية الأمير محمد سعيد؛ ط/بدون؛ مطبعة الشرقي دمشق ١٣٣٢هـ.

٥٨- الرحلة المغربية؛ أبو عبدالله محمد بن محمد بن علي العبدري الحيحي قدم للرحلة وعلق عليها: محمد الفاسي؛ ونشرتها: جامعة الملك محمد الخامس المغرب؛ الرباط ١٣٨٨هـ.

٥٩- الرحلة المقدسة إلى بيت الله الحرام؛ عبد الله عبد المطلب بوقس الناشر :المؤلف نفسه، ط/١ ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٦٠- الرحلة الناصرية أبوالعباس أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن ناصرالدرعي؛ تحقيق: عبد الحفيظ الملوكي الناشر: دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ٢٠١١م.

٦١- الرحلة الناصرية الكبرى؛ للشيخ محمد بن عبد السلام بن محمد الكبير بن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي التامكروتي؛ تحقيق: د.المهدي الغالي؛ الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية؛ الرباط.

٦٢- الرحلة الهندية إلى البلاد العربية.؛ رفيع الدين بن فريد الدين بن عظمة الله بن عبد القادر العمري الكهنوي المراد آبادي. ترجمة: د. سميرعبد الحميد إبراهيم؛ الناشر: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م.

٦٣- الرحلة الورثيلانية الموسومة: بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار؛ الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة؛ ١٤٢٩هـ.

٦٤- رحلة حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، أبو عبدالله محمد يحيى محمد المختار الولاتي؛ تحقيق: د. محمد الحجي؛ الناشر: دار الغرب الإسلامي، بدون: د.ت.

٦٥- رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي إلى مصر وفلسطين والشام والحجازالمؤلف: خواجة حسن نظامي الدهلوي؛ ترجمة: سميرعبدالحميد إبراهيم؛ ونشرها: المجلس الأعلى للثقافة؛ القاهرة: ٢٠٠٢م.

٦٦- رحلة ريتشارد بيرتون إلى مصر والحجازريتشارد بيرتون ؛ ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ؛ ط/بدون؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

٦٧- رحلة عبر الجزيرة العربية سادلير؛ تحقيق: سعود بن غانم الجمران العجمي؛ ط/١؛ دار الفكر؛ دمشق ١٤٠٣هـ.

٦٨- رحلة فتى يمني ؛ راشد عبد الله عبده؛ الناشر: المؤلف نفسه سنة ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م دون ذكر رقم الطبعة ومكانها.

٦٩- رحلتي إلى البقاع المقدسةباعزيز بن عمر بازي؛ الناشر :دار ثالغ للنشر، الجزائر، د.ت.

٧٠- رحلتي إلى الحجاز: ٤٩ يوماً في الأراضي المقدسةمحمد صابر مرسي تاريخ النشر: ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م.

٧١- رحلتي إلى المدينة المنورة محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاف؛ تحقيق: محمد بن ناصر العجمي؛ الناشر: دار البشائرالإسلامية للطباعة والنشر؛ بيروت ١٤٢٩هـ.

٧٢- رحلتي إلى المدينة المنورة محمد جمال القاسمي؛ ط/١؛ دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر؛ بيروت ١٤٢٩هـ.

٧٣- سفر نامه حجاز؛ عبد الماجد الدريابادي؛ ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم. تقديم: سيد سليمان الندوي. الناشر :المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.

٧٤- سفر نامه؛ ناصر خسرو بن حارث القاباذاني المروزي؛ ترجمها عن الفارسية الأستاذ يحيى خشاب؛ نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ط/٢ القاهرة ١٩٩٣ هـ.

٧٥- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشرمحمد خليل بن علي المرادي. ط/٣؛ دار ابن حزم للطباعة والنشر؛ بيروت ١٤٠٨هـ.

٧٦- سنن ابن ماجه ، محمد بن يزيد القزويني ، أبو عبد الله ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار الفكر – بيروت.

٧٧- شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز، خير الدين الزركلي؛ ط/٥؛ دار العلم للملايين؛ بيروت ١٩٩٢م.

٧٨- شفاء الغرام: حج بيت الله الحرام؛ حجة الحجوجي، محمد بن محمد الحجوجي الإدريسي الفاسي الحسني: في مركز جمعة الماجد، دبي، الإمارات العربية المتحدة.

٧٩- شهور في ديار العرب؛ مسعود عالم الندوي؛ ترجمة د . سمير عبد الحميد إبراهيم .الناشر :الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٢٢هـ .

٨٠- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل ، أبي عبد الله الجعفي البخاري ، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا ، ط٣ ، دار ابن كثير ، بيروت ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م.

٨١- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٨٢- الصفة في المسجد النبوي؛ وصف وتاريخ، د. أحمد محمد شعبان، موسوعة المسجد النبوي ، د.ت.

٨٣- صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطارمحمد بن مصطفى بيرم؛ طبعت بدار الكتب العلمية؛ بيروت: ١٤١٧هـ.

٨٤- صور من الحجاز، محمد كامل عبد الرحمن حته؛ الناشر المؤلف نفسه، مطبعة فؤاد المنياوي، القاهرة، ١٤٥٣م.

٨٥- الطريق إلى مكة، د. مصطفى محمود الناشر: دار العودة، بيروت .١٩٧١م.

عبدالله بن محمد التكروتي رحلة أبي سالم التكروتي؛ تحقيق: أ.د الهادي المبروك الدالي؛ ط/٢؛ دار الكتب الوطنية؛ بنغازي ٢٠٠٩م.

٨٦- على الطائر الميمون؛ مصطفى محمد الراعي؛ الناشر: المؤلف نفسه القاهرة د. ت.

٨٧- على طريق الهجرة، عاتق بن غيث البلادي؛ الناشر: دار مكة للنشر. د. ت.

٨٨- عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي، عبداللطيف بن دهيش.

٨٩- في الأرض المقدسة بين مصر والحجاز؛ إبراهيم محمد حبيب؛ الناشر: المؤلف نفسه، د.ت. راجعه ووقف على مراجعته مكتبة جامعة القلم، القاهرة.

٩٠- في منزل الوحي، محمد حسين بن سالم هيكل؛ الناشر دار المعارف بمصر؛ الطبعة الثامنة؛ القاهرة ١٩٨٦م.

٩١- قرة العين في الرحلة إلى الحرمينعبد الله بن علي بن الشيخ أبي بكر؛ الناشر: المؤلف نفسه، مطبعة محمد علي صبح، القاهرة، د.ت.

٩٢- كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين (١١- ١٢)؛ ط/بدون؛ دار الملك عبدالعزيز؛ الرياض ١٤٢٩هـ.

٩٣- لماذا أحببت ابن سعودمحمد أمين التميمي الناشر:دارة الملك عبد العزيز بالرياض ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٩٤- لمحة بصر على البلاد المقدسةمحمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن السائح؛ تحقيق: د. محمد قزقزان . الناشر: لم يذكر. الرباط. ١٤١٦هـ ١٩٩٥م

٩٥- الله أكبر، عبد الكريم جرمانوس؛ الناشر: المؤلف نفسه د.ت .

٩٦- اللؤلؤة الفاشية في الرحلة الحجازية، عبدالسلام بن محمد بن المعطي السرغيني الحسني تحقيق: نور الهدى بنت عبد الرحمن الكتاني، الناشر: دار ابن حزم، ٢٠١٠م.

٩٧- المجلة العربية في طيبة قبل ستة وخمسين عاما حمد الجاسر؛ العدد/١٦٧؛ ١٤١١هـ.

٩٨- مجلة: نادي المدينة المنورة الأدبي؛ الآطام العددان ٣٩-٤٠ مجموعة مقالات للباحثين أ- جلال السعيد الحفناوي ب- عبدالله الحيدري ج- تنيضب عوادة الفايدي د- محمد بن ناصر العبودي.

٩٩- المدينة المنورة في آثار المؤلفين قديماً وحديثاً، عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان؛ ط/١؛ الناشر بدون.

١٠٠- المدينة المنورة في رحلة العياشي محمد أمحزون؛ ط/١؛ دار الأرقم للنشر؛ الكويت ١٤٠٨هـ.

١٠١- المدينة المنورة في عيون رحالة غربيين عدنان عبد البديع اليافي؛ ط/١؛ جهة الطبع/بدون؛ ١٤٣٣هـ.

١٠٢- المدينة المنورة؛ تطورها العمراني وتراثها المعماري، صالح لمعي مصطفى، ط:١، ١٤١٣هـ.

١٠٣- مرآة الحرمين إبراهيم رفعت باشا بن سويفي بن عبدالجواد بن مصطفى المليجي نشر : دار الكتب المصرية ؛ القاهرة ١٣٤٤هـ ١٩٢٠م.

١٠٤- مرشد الحجاج الى الأماكن المقدسة، محمد حسن غالي؛ نشر المؤلف رحلته في القاهرة عام ١٣٤١هـ.

١٠٥- مشاهداتي في الحجازعباس متولي حمادة؛ الناشر :المؤلف نفسه، ط مطبعة المستقبل ١٣٣٦هـ .

١٠٦- المغاربة في المدينة المنورة إبان القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، محمد علي فهيم بيومي؛ ط/١ دار القاهرة ١٤٢٧هـ.

١٠٧- مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى أغسطس رالي؛ ترجمة: حسن سعيد غزالة؛ تعليق: معراج نواب مزرا ومحمد محمود السرياني؛ ط/بدون؛ دار الملك عبدالعزيز؛ الرياض١٤٣٠ هـ.

١٠٨- مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة، للباحث عبدالهادي التازي؛ ط/ بدون؛ نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٤٢٦هـ.

١٠٩- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة والوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة؛ أبو عبدالله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي؛ تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، الناشر: دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٥م.

١١٠- من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة، للباحث محمد بن حسن بن عقيل موسى؛ الطبعة الأولى؛ التي نشرتها دار الأندلس الخضراء بمدينة جدة سنة ١٤٢١هجرية .

١١١- من مكة المكرمة إلى الرياضعلي رضا التونسي؛ الناشر :المؤلف نفسه، المطبعة التعاونية بدمشق ١٣٨١هـ - ١٩٦٤م.

١١٢- من نفحات الحرمعلي بن مصطفى بن أحمد الطنطاوي؛ الناشر :دار المنارة، جدة ١٤٠٥هـ.

١١٣- من وحي الحرميند. مصطفى الديواني؛ الناشر :دار الشعب، القاهرة، د.ت.

١١٤- نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس؛ عباس بن علي بن نور الدين الحسيني الموسوي المكي؛ قدم له واعتنى به: محمد مهدي الخرسان؛ الناشر: المطبعة الخيرية في النجف الأشرف؛ ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.

١١٥- نفحات الحج والزيارة- رحلة متولي نجيب متولي، عيد صابر نجيب؛ الناشر :المؤلف نفسه. القاهرة ١٩٥٠م.

١١٦- النفحات القدسية في الرحلة الحجازية، محمد بن علي بن محمد بن زغوان الطرابلسي المقري؛ تحقيق: د. قريرة زرقون نصر، الناشر: أكاديمية الفكر الجماهيري، طرابلس، ليبيا، د.ت.١٤٠٤ هـ.

١١٧- النفحة المسكية في الرحلة المكية؛ عبد الله بن حسين بن مرعي بن ناصر الدين البغدادي السويدي. تحقيق: د.علي عمر؛ الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. وطبع طبعة أخرى تحقيق: د. عمار عبدالسلام رؤوف؛ المجمع الثقافي؛ أبو ظبي؛ الإمارات العربية المتحدة؛ ١٤٢٤هـ.

١١٨- الهارب إلى الله؛ وليم ريتشارد وليا مسون، المؤلف: ستانتون هوب؛ ترجمة: رضوان مولويق؛ الدار المتحدة للنشر؛ بيروت: د.ت.

فهرس المحتويات

العنوان	رقم الصفحة
ملخص البحث	٣
الكلمات المفتاحية	٣
مقدمة عامة	٤
أهداف الدراسة	٥
تساؤلات الدراسة	٥
الدراسات السابقة	٥
منهج الدراسة وحدودها ومصادرها	٦
تقسمات البحث	٨
تمهيد في: أصناف الرحالة، وتباين أساليبهم، والمحاور التي تناولوها عن المسجد النبوي الشريف	١٠
المبحث الأول: المسجد النبوي في عيون رحالة العصر العباسي (١٣٢ ـ ٦٤٨ هـ)	١٣
المطلب الأول: مواصفات المسجد الهندسية كما رآها رحالة العصر العباسي.	١٥
المطلب الثاني: مواصفات قبلة المسجد كما رآها رحالة العصر العباسي:	١٩
المطلب الثالث: الروضة ومعالمها ومحتوياتها كما رآها رحالة العصر العباسي:	٢٠
المطلب الرابع المقصورة ومعالمها ومحتوياتها كما رآها رحالة العصر العباسي:	٢٢
المطلب الخامس: المرافق الملحقة بالمسجد كما رآها رحالة العصر العباسي:	٢٤
المطلب السادس: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر العباسي في المسجد النبوي	٢٥
المبحث الثاني: المسجد النبوي في عيون رحالة العهد المملوكي (٦٤٨ _ ٩٢٣هـ)	٢٧
المطلب الأول: المسجد النبوي كما رآه رحالة العصر المملوكي.	٣١
المطلب الثاني: الحركة العلمية في المسجد النبوي كما رآها رحالة العصر المملوكي	٣٦
المطلب الثالث: المشاهدات التي رآها رحالة العصر المملوكي في المسجد النبوي	٤٠
المطلب الرابع: مسائل اختلف فيها رحالة العصرين العباسي والمملوكي.	٤٢

المبحث الثالث: المسجد النبوي في عيون رحّالة العصر العثماني الأوّل (٩٢٣-١٢٢٠هـ) ٤٥

المطلب الأول: المسجد النبوي كما رآه رحالة العصر العثماني الأول. ٥١

المطلب الثاني: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر العثماني الأول في المسجد النبوي. ٥٩

المطلب الثالث: العادات والتقاليد التي رصدها رحالة العصر العثماني الأول. ٦٣

المطلب الرابع : الحركة العلمية في المسجد النبوي كما رآها رحالة العصر العثماني الأول ٦٦

المطلب الخامس: حديث رحالة العصر العثماني الأول عن سدنة المسجد النبوي ٧٢

المبحث الرابع: المسجد النبوي في عيون رحالة العصد العثماني الثاني (١٢٥٦-١٣٣٧هـ) ٧٦

المطلب الأول: المسجد النبوي الشريف كما رآها رحالة العصر العثماني الثاني ٨٢

المطلب الثاني: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر العثماني الثاني في المسجد النبوي. ٩٠

المطلب الثالث: حديث رحالة العصر العثماني الثاني عن سدنة المسجد النبوي. ٩٤

المطلب الرابع : الحركة العلمية في المسجد النبوي كما رآها رحالة العصر العثماني الثاني. ٩٦

المبحث الخامس: المسجد النبوي في عيون رحالة العصر السعودي الحالي ١٠٠

المطلب الأول: ما استدركه رحالة هذا العصر على من قبلهم في مبنى التوسعة العثمانية ١١٣

المطلب الثاني: المشاهدات التي رصدها رحالة العصر السعودي الحالي في المسجد النبوي. ١١٧

المطلب الثالث: عمارة المسجد النبوي الشريف في العصر السعودي الحالي. ١٢١

المطلب الرابع: الحركة العلمية في المسجد النبوي الشريف كما يراها رحالة العصر السعودي الحالي ١٢٩

المطلب الخامس: موظفو المسجد النبوي وسدنته في العصر السعودي الحالي. ١٣٢

خاتمة البحث. ١٣٥

فهرس المصادر والمراجع ١٣٨

قائمة المحتويات ١٤٨